المقتطف

الجزء الثاني من المجلد العاشر بعد المئة

١٠ فبراير سنة ١٩٤٧ — ١٩ ربيع أول سنة ١٣٦٦

مدرسة الاسكندرية

برنامج تدريس الطب بها إلى أواسط القرن السابع الميلادي وانتقال حركة العلم إلى أنطاكية

إذا قلنا إنه كان لمدرسة الإسكندرية في العصر القديم برنامج للطب دُرِّس فيها واتخذ وسيلة إلى تخريج الأطباء، فليس معنى ذلك أن نقول إن هذا البرنامج قد وضع في أول العهد لتأسيس هذه المدرسة. ذلك بأن أساس هذه المدرسة قد تطوّر مع الزمن، فكانت في أول أمرها مكتبة وضع نواتها بطليوس الأول (بن لاغوس) ونمّاها وأوسع من أرجائها وأمدّها بمؤلفات العالم الأغريقي إبنه بطليوس فيلادلفوس، ومن حول هذه النواة تخرّج علماء وفلاسفة ورياضيون وغراماطيقيون وشعراء نابهون، كانوا البزرة التي فرخت منها تلك المدرسة العظيمة. ومن أعظم الذين نموا هذه البزرة الطيبة رجال ونساء من أشهر من انحدرت إلينا أسماؤهم من العالم القديم. ولنذكر بعضاً منهم على سبيل المثل لا على سبيل الحصر.

(١) اقليدس Euclid الرياضي وهو الذي جمع الحقائق الهندسية التي كانت مبثوثة في حلقات الدرس الأغريقية ورتبها على أسلوب نظيم، فجاء كتابه في مقالات لا يزال الى الآن موضع الاعجاب المبهم.

ومن طرائف حياة هذا الرجل العظيم أن بطليموس فيلادلفوس أراد أن يتعلم الرياضة ، فأخذ يعض على إقليدس ، ولكنه أنس في هذا العلم من الغموض والاستغلاق ما جعله يسأل أستاذه يوماً : ألا يوجد طريق أسهل لتلقي هذا العلم ، فقال له إقليدس بلا تلعثم : الطريق المعهود ليس طريق العلم .

(٢) ارسطارخوس : Aristarchus وهو الذي نقل التعاليم الفيثاغورية الى مدرسة الاسكندرية ، وبخاصة القول بدوران الأرض من حول الشمس ، واشتغل بتعيين بُعد الشمس عن الأرض ، فوقع كذلك على طريقة رياضية كانت موضع الدرس والبحث قروناً عديدة .

(٣) إراطوسثانس : Eratosthenes وهو رياضي وفلكي ، وهو أول واضع للطريقة المعروفة في كتب الحساب لإيجاد الأعداد الأولية ، وحل المسألة الرياضية المعروفة بتضعيف المكعَّب ، واخترع الكرة الصناعية التي تمثل دورة الأفلاك ، وعين ميل دائرة البروج على خط الاستواء ، وعين بالتقريب حجم الأرض بواسطة الشمس في بئر بأسوان بصعيد مصر .

(٤) أفولونيوس : Apollonius ولو لم يكتب هذا الرجل غير ما كتب في القطوع المخروطية لكفى بذلك شاهداً على نبوغه وعبقريته . وقد تُرجم هذا الكتاب في عصر المأمون ، ثم علقت عليه الشروح والحواشي الكثيرة . ومما يتضمنه هذا الكتاب بحوث في الخطوط الاهليلجية والهذلولية أي المخروطية الناقصة والزائدة ، وبعض مسائل في النهايات الكبرى والصغرى ، وكلامه فيما يسمى الآن المنتصفات المنتشرة حتى في مراكز الالتصاق .

(٥) ابَرْخُس : Hipparchus وكان من آثاره تقدم علم الهيئة ، إذ عين السنة الشمسية الحقيقية ، وحسب جداول لاختلاف الشمس ، واكتشف الاعتدالين : الربيعي والخريفي ، وطريقة تعيين مواقع البلدان والأماكن بخطوط الطول وخطوط العرض ، وقاس بعد القمر عن الأرض ، وعمل الزيج المشهور للثوابت ، ومنذ ظهور ابَرْخُس حتى ظهور المسيح ، لم يظهر في الشرق من عالم إلا وكان من خريجي جامعة الاسكندرية .

(٦) جامينُس : Caminius وهو الذي أرّخ لعلم الفلك .

(٧) سوسيغانس : Sosigenes الذي أصلح حساب الوقت اليوليوسي

(٨) ثيودوروس : Theodorus مؤسس علم الهيئة الكروية .

(٩) بطليوس القلسي مؤلف كتاب « المجسطي » المعروف عند العرب ، وكان كثير من القدماء يعتقدون أنه الله . وكان كتابه هذا أساس علم الأمة العربية والأمم الأوربية بعلم الهيئة أربعة عشر قرناً طوالاً . وهو الذي وضع النظام المعروف باسمه أي النظام البطليموسي ، وأول من صنع الخرائط الجغرافية بواسطة الاسقاطات ، وألف في الضوء وتكلم بإسهاب عن انكساره ، كما ألف في الموسيقى والميخانيقا وغيرها من الفنون .

(١٠) ديوفانتوس : Diophantus : وهو واضع علم الجبر ، وعنه أخذ العرب .

(١١) تاون : Theon ، وكان فلكيًا حسب خسوفاً للقمر في سنة ٣٦٥ ق. م. ولكن لم تعرف الطريقة التي اتبعها في ذلك ، وكان من شرّاح مقالات اقليدس والمجسطي بطريقة بذّ بها غيره من الشرّاح والمعلقين .

(١٢) هو باشيا : Hypatia وهي أشهر النساء اللواتي يذكرهن التاريخ القديم ، نبغت في الرياضيات والفلسفة ، وقد درّست في مدرسة الاسكندرية ، فخلبت ببلاغتها السامعين . ولها مؤلفات كثيرة منها كتاب في علم الهيئة ، وشرح على كتاب ديوفانتوس ، وآخر على كتاب ابولونيوس في القطوع المخروطية .

هذا ولم نذكر سلسلة طويلة من الفراماطيقيين والفلاسفة أمثال كلجاخوس وسجسياس وطائفة من نوابغ مدينة « قورينة » هبطوا الاسكندرية وتعلموا وعلموا بها . ولا يفوتنا أن نقول في ختام هذا التمهيد إن جالينوس أبا الطب قد درس في أثينا أولاً ثم في الاسكندرية من بعد ذلك ، ثم ذهب الى فرغامون ، ثم الى رومية ، ومات سنة ٢٠٠ بعد الميلاد .

إذن نعرف من هذا أن الاسكندرية قد شهدت في مدى قرون عديدة سلسلة من العظماء في مختلف الفنون والعلوم أسسوا بها عظمة مدرستها الخالدة .

وقد يتضح لنا من بحث كتب الطبقات ان مدرسة الاسكندرية قد بلغت من النظام مبلغ الجامعات الحديثة ، سواء أمن ناحية وضع برامج الدرس العلمي والفلسفي ، أم من ناحية أسلوب البحث والدرس الأكاديمي الصحيح . فقد قام نظام الدرس في تلك الجامعة الفذة على أساس التعاون الكامل في التقصي العلمي بين جماعة من الأساتذة المبرزين تمرّنوا

أسلوب البحث العقلي ، وطلبة يعاونونهم على الاستغراق فيه . ولا ريبة في أن هذه الروح العلمية هي وراثة عن مدارس أثينا القديمة نقلها الأغارقة إلى عاصمة الدنيا الجديدة في العالم الإغريقي Hellenic منذ بداءة عصر الاسكندر المقدوني .

قال أبو الحسن علي بن رضوان في كتاب « المنافع » في كيفية تعليم صناعة الطب :

« وانما اقتصر الاسكندرانيون على الكتب الستة عشر من سائر كتب جالينوس ، في التعليم ليكون المشتغل بها إن كانت له قريحة جيدة وهمة حسنة وحرص على التعليم ، فانه إذا نظر في هذه الكتب اشتاقت نفسه بما يرى فيها من عجيب حكمة جالينوس في الطب الى أن ينظر في باقي ما يجده منها . وكان ترتيبهم لهذه الكتب في سبع مراتب » (١) .

***

ولم أقف في خلال بحوثي على برنامج كامل درس في عصر بعينه من عصور مدرسة الاسكندرية . غير أن برنامج صناعة الطب في هذه المدرسة يدلنا دلالة واضحة على ما بلغ نظام الدرس فيها من الرتابة والكمال وتنظيم المعلومات وتسلسل التلقي في درجات تسلم كل درجة منها الى الدرجة التي تليها . وقد نقول قياساً على هذا إن ما تم في درس بقية العلوم لم تكن تنزل عن صناعة الطب نظاماً ورتابة ، فالفلسفة والرياضيات والآداب والميكانيقا ، من العلوم التي ازدهرت في مدرسة الاسكندرية ونشرت في جوانب العالم القديم نور المعرفة الصحيحة . بل اني لا أبالغ إذا قلت إن الفلسفة والرياضيات على الأخص علمان قد نشآ في أثينا ، ونظما وازدهرا في الاسكندرية . وما بقية المدارس التي نشأت في حوض البحر المتوسط غير فروع وشعب نشأت من الدوحتين العظيمتين : أثينا أولاً ، والاسكندرية ثانياً .

ولا يسعني أن أدلك على صحة ما أذهب اليه الا بشرح برنامج صناعة الطب في الاسكندرية ، لتعلم قياساً عليه ، انه كان لكل من العلوم الأخرى برامج مشابهة له ، وان حرية البحث كانت رائد الأساتذة وطلبة المتعلمين معاً ، وبرهاننا على ذلك حياة الفيلسوفة العظيمة هوباطيا ابنة ثاوُن الاسكندري ، وقد قتلت في الاسكندرية في ثورة من ثورات الدهماء في عهد انتشار النصرانية .

---

(١) طبقات الاطباء ص ٣٠٠ ج ١

أسس صناعة الطب في الاسكندرية الحكيم حالينوس ، ولو لم يكن من أبنائها. هبط جالينوس الاسكندرية ، وظلّ بها زماناً لا ندري على التحقيق مداه ولكن رجال المدرسة اتخذوا مؤلفاته أساساً لدرس صناعة الطب فهو أبو الطب في هذه المدرسة ، حيث كانت مؤلفاته أساس التعليم بها ، فقد أختيرت ستة عشر مقالة من مقالاته في هذه الصناعة قام عليها برنامج الدراسة ، وقسم البرنامج سبع مراحل يدرس في كل مرتبة منها كتبٌ معلومة من كتب حالينوس المختارة[1] ولا شك عندي في أن العرب نهلوا صناعة الطب عن الاسكندرية ، فقد كانت في العصر القديم مستقر هذه الصناعة ومنبعها الأول ومستقاها الخصب .

المرتبة الاولى

هي المدخل الى صناعة الطب . ومن يدرسها يمكنه أن يتعاطى أعمال الطب الجزئية ، ومنها يتدرّج من يريد التوسع الى المراتب التي تليها ، فاذا اقتصر عليها ، لم تخف عليه منافع علاج الامراض . ويدرس في هذه المرتبة أربعة كتب :

(١) كتاب الفِرَق : وهو مقالة واحدة ، ويستفاد منه قوانين العلاج على رأي أصحاب التجربة ، وعلى رأي أصحاب القياس . « إذ كان بالتجربة والقياس ، يستخرج الناس جميع ما في الصنائع . وما اتفقا عليه هو الحق ، وما اختلفا فيه نُظِرَ ، فان كان طريقه القياس عمل على قوانين القياس فيه ، وان كان طريقه التجربة ، عمل على قوانين التجربة فيه »

(٢) كتاب الصناعة الصغيرة : يستفاد منها جملة صناعة الطب كلها نظريًّا وعمليًّا .

(٣) كتاب النبض الصغير : وهو مقالة واحدة ، يستفاد منه جميع ما يحتاج اليه المتعلم من الاستدلال بالنبض على ما ينتفع به في الامراض .

الكتاب المسمى بأغْلُوقَن : وهو مقالتان ، يستفاد منه كيفية التأتي في هذه الامراض ، ولأن من يتعاطى الاعمال الجزئية من الطب ، يضطر إلى معرفة قوى ما يحتاج إليه من الأغذية والأدوية ، والى أن يباشر بنفسه أعمال اليد من صناعة الطب ، ولزمه أن

(١) اعتمدنا في شرح هذا البرنامج على كتاب طبقات الاطباء ج ١ ص ١٠٦ الى ١٠٩ ورجاء استعملنا الفاظه وعباراته بنصها في بعض المواضع ، مع تحوير في الوضع يجعل للقصود أبين وأجلى

يظفر فيما تدعو إليه الحاجة من الكتب التي تحاها جالينوس في آخر الصناعة الصغيرة ، أو يتعلم ما يحتاج إليه من ذلك تلقيناً ومشاهدة .

ويستدل من هذا على أن هذه المرتبة تتناول قوانين العلاج والصناعة نظرياً وعملياً والاستدلال بالنبض على ما ينتفع به في الامراض والتشخيص والتعريض والاقرباذين العملي إلى تركيب الادوية والمتفاقير . والكتب التي تدرس في هذه المرحلة « مقنعة للمتعلم في تعليم صناعة الطب . فأما الكامل ، فإنه يتذكر بها جميع ما فهمه من الصناعة » .

المرتبة الثانية

تدرس في أربع كتب :

(١) كتاب الاسطقسات : مقالة واحدة ، وبحث في أن بدن الانسان وما يحتاج إليه سريع التغير قابل للاستحالة . وهذه الاسطقسات ضروب : منها أسطقسات البدن القريبة منه ، وهي الاعضاء المتشابهة الاجزاء ، كالعظام والاعصاب والشرايين والعروق والاغشية واللحم والشحم وغير ذلك . وهذه الاعضاء تتألف من أسطقسات هي الاخلاط الاربعة : الدم والصفراء والسوداء والبلغم . وهذه الاخلاط تتألف من أسطقسات هي النار والهواء والماء والارض . ومبدأ التكوين من هذه الاربعة ، والاخلال يقع عليها ، أو يصير إليها . وهذه الاسطقسات قابلة للتغير والاستحالة .

« وهذا الكتاب هو أول كتاب يصلح أن يبدأ به من أراد استكمال تعليم صناعة الطب » .

(٢) كتاب المزاج : ثلاث مقالات ، يدرس أصناف الامزجة ، وما يتقدم به كل واحد منها وما قد يستدل عليه إذا حدث .

(٣) كتاب القوى الطبيعية : ثلاث مقالات ، يدرس أصناف القوى التي تدبر البدن وأسبابها ، والعلامات التي يستدل بها عليها .

(٤) كتاب التشريح الصغير : خمس مقالات . وكان جالينوس قد وضعها متفرقة ، ولكن أهل مدرسة الاسكندرية جمعوها وجعلوها كتاباً واحداً . ويستفاد منه معرفة

أعضاء البدن المتشابهة وعددها وجميع ما يحتاج إليه فيها ، ويتضمن فيما يتضمنه درس منافع الأعضاء .

المرتبة الثالثة

تدرس في كتاب واحد ، يتضمن ست مقالات كتبها جالينوس متفرقة ، وجمعها الاسكندريون في كتاب واحد ، ويدرس فيها علم معرفة الأمراض وأسبابها والاعراض الحادثة عن الأمراض . « وهذا باب عظيم الغناء في صناعة الطب على رأي أصحاب القياس » .

المرتبة الرابعة

تدرس في كتابين :

(١) كتاب تعرف علل الأعضاء الباطنة : ست مقالات ، يدرس فيها تعريف كل علة من العلل التي تحدث في الأعضاء الباطنة . « لأن هذه الأعضاء لا تدرك أمراضها بالعيان لأنها خفية عن الحس ، فيحتاج الى ان يستدل عليها بعلامات تقوّم كل واحد منها ، فاذا ظهرت للعلامات المقومة تيقن أن في العضو الفلاني علة كذا » .

(٢) كتاب النبض الكبير : أربعة أجزاء كل جزء أربع مقالات .

الجزء الأول : يستفاد منه : أصناف النبض وجزئيات كل صنف منها .

الجزء الثاني : يستفاد منه : تعريف إدراك كل واحد من أصناف النبض .

الجزء الثالث : يستفاد منه : تعريف أسباب النبض .

الجزء الرابع : يستفاد منه : تعريف منافع أصناف النبض .

« وهذا باب عظيم النفع في الاستدلال على الأمراض ومعرفة قواها ونسبتها الى البدن »

المرتبة الخامسة

تدرس في ثلاث كتب :

(١) كتاب الحُمَّيات : مقالتان ، يدرس فيه طبائع أصناف الحميات

(٢) كتاب البُحْرَان : ثلاث مقالات ، يدرس فيها معرفة أوقات المرض ، ليعطى في كل وقت منها ما يوافق فيه ، ومعرفة ما يؤول إليه الحال في كل واحد من الأمراض ، هل يؤول أمره إلى السلامة منه ، وكيف يكون ، وبماذا يكون ؟

(٣) كتاب أيام البحران : ثلاث مقالات ، يدرس فيها معرفة أوقات البحران ومعرفة الايام التي يكون فيها ، وأسباب ذلك وعلاماته .

المرتبة السادسة

كتاب واحد ، هو كتاب حيلة البرء : أربع عشرة مقالة ، يدرس فيه قوانين العلاج على رأي أصحاب القياس في كل واحد من الأمراض . وهذا الكتاب إذا نظر فيه الانسان اضطره الى النظر في كتاب الأدوية المفردة ، وفي كتب جالينوس في الأدوية المركبة ، أعني « قاطا جانس » و « الياسر » وكتاب « المعجونات » ، ونحو هذه الكتب .

المرتبة السابعة

كتاب واحد : في تدبير الاصحاء : ست مقالات يدرس فيها صحة كل واحد من الابدان .

* * *

مما يدلنا دلالة قاطعة على أن علماء الطب بالاسكندرية قد أدركوا أسلوب البحث الأكاديمي ادراكاً كاملاً ، وانهم تشربوا الروح الجامعية في البحوث العلمية ، أقوال ننقلها عن القدماء ، وكلها تدل على ان هؤلاء العلماء قد بلغوا من الاسلوب العلمي أرقى مبالغه في عصرهم :

قال ابن أبي أصيبعة في كتاب طبقات الاطباء .

« وهذا الكتاب (أي كتاب تدبير الاصحاء الذي يكون في المرتبة السابعة من مراتب دراسة الطب في الاسكندرية) إذا نظر فيه الانسان ، اضطره إلى أن ينظر في كتاب الأغذية في كتابه في جودة الكيموس ورداءته ، وفي كتابه في التدبير الملطف وفي شرائط الرياضة » . . . . .

وفي هذا برهان كامل على أن هؤلاء العلماء قد أقاموا برنامج الدراسة على أساس تركيبي نظيم بحيث يجرك درس كتاب الى الآخر ، فاذا تدرجت من واحد الى ما بعده وما يترتب عليه ، انتهيت الى حيث انتهى جالينوس .

على أن الذين نقلوا الطب عن الاسكندرية من العرب ، قد وجهوا الى تدرج الدرس في هذه الصناعة على الصورة التي أسلفناها ، نقوداً قيمة رشيدة ، وعقبوا على الاسكندريين بآراء في درس الطب لا ينقصها المنطق ولا تعوزها رجاحة النظر

قال أبو الفرج بن هندو ، في « كتاب مفتاح الطب » ما يلي :

« هذه هي الكتب التي اتخذها الاسكندرانيون من كتب جالينوس ، وعملوا منها الجوامع ، وزعموا أنها تغني عن متون كتب جالينوس ، وتكفي كلفة ما فيها من التوابع والفصول » .

وقال أبو الخير الحمّار ، وهو أستاذ أبو الفرج بن هندو :

« أنا أظن أنهم قد قصّروا فيما جمعوه من ذلك لأنهم يعوزهم الكلام في الأغذية والأدوية والأدوية ، قال — « والترتيب أيضاً قصّروا فيه ، لأن جالينوس بدأ من التشريح ثم صار الى القوى والأفعال ، ثم إلى الأمراض » .

وقال أبو الفرج بن هندو معقباً على جميع ذلك بنقد هو غاية في الجودة وادراك الحقائق من علوم تلك الصناعة .

« أنا أرى أن الاسكندرانيين إنما اقتصروا على الكتب الستة عشر ، لا من حيث هي كافية في الطب ، وحاوية للغرض ، بل من حيث افتقرت الى المعلم ، واحتاجت الى المفسّر . ولا يمكن أن يقف المتعلم على أسرارها ، والمعاني الغامضة فيها ، من غير مذاكرة ومصارحة ، ومن دون مراجعة ومفاوضة . فأما الكتب التي ذكرها الاستاذ أبو الخير بن الحمّار ، فالطبيب مضطر الى معرفتها وإضافتها الى الكتب التي عدّدناها ، غير انه يمكنه من نفسه الوقوف على معانيها ، وامتناك الأغراض فيها ، بالقوة المستفادة من الستة عشر التي هي القوانين لما سواها ، والمراقي إلى ما عداها . فإن قُلْتَ : فما حجة الاسكندرانيين في ترتيبهم لهذه الكتب ، قلنا إنهم رتبوا بعضها بحسب استحقاقه في نفسه بمنزلة كتاب « الفيرق » فإنه وجب تقديمه لتنتفي به نفس المتعلم من شكوك أصحاب التجربة والمحتالين ومغالطاتهم ، ويتحقق رأي أصحاب القياس فيقتدي بهم وبمنزلة الصناعة الصغيرة . فانه لما كانت فيها شرارة من صناعة الطب ، كان الأولى أن يتبع بها كتاب « الفيرق » ، ويجعل

مدخلاً الى الطب ، ورتبوا بعضها بحسب ما توجبه إضافته الى غيره بمنزلة الكتاب الصغير في النبض ، فانه جعل تابعاً للصناعة الصغيرة ، لأن جالينوس ذكر فيها النبض عند ذكره لمزاج القلب ، ووجب أيضاً تقديمه على كتاب جالينوس الى أغلوقن ، لانه تكلم في هذا الكتاب في الحميات . والنبض هو أول شيء يعرف منه أمر الحميات . على أن الترتيب الذي ذكر الاستاذ أبو الخير ، إن جالينوس أشاء إليه ، هو لمعنى الترتيب الصناعي . وذلك إنه يجب على كل ذي صناعة أن يتدرج في تعليمها من الأظهر الى الأخفى ، ومن الأخير إلى المبدأ . والتشريح هو علم البدن وأعضائه . وهذه هي أول ما يظهر لنا في الانسان ، وإن كانت آخر ما تفعله الطبيعة . فان الطبيعة تأخذ أولاً الاسقسات [1] ، ثم تمزجها فيحصل منها الاخلاط ، ثم تفعل القوى والاعضاء » .

«فيجب أن يكون طريقنا الى التعليم بالعكس من طريق الطبيعة في التكوين . ولكنا ندع هذا الاضطرار ، ونرضى ترتيب الاسكندرانيين ، لأن العلم حاصل على كل حال ، وخرق اجماع الحكماء معدود من الخرق » . اهـ .

ونحن نقول من ناحيتنا إن قدماءنا لو لم يخضعوا لهذه القاعدة ، قاعدة أن «خرق اجماع الحكماء معدودٌ من الخُرق» لبلغوا من العلم مبالغ عليا . ذلك بأن خرق اجماع الحكماء كان في جميع الأزمان وفي كل الملابسات ، السبيل الى العلم والى المعرفة .

قال ابن أبي أصيبعة ص ١٠٩ ج ١ :

« للاسكندرانيين جوامع كثيرة في العلوم الحكمية والطب ولا سيما لكتب جالينوس وشروحاتها لكتب أبقراط » . وذكر من أولئك الذين نبغوا في الاسكندرية : شمعون الراهب المعروف بطيبويه . أعرون صاحب الكناش ، ألف كناشه بالسريانية ، ونقله ماسرجيس الى العربي ، وهو ثلاثون مقالة ، وزاد عليها ماسرجيس مقالتين . يوحنا ابن سرابيون ، وجميع ما ألف سرياني ، وكان والده سرابيون طبيباً من أهل باجرمي ، وخرج ولداه طبيبين فاضلين ، وهما يوحنا وداود ! وليوحنا بن سرابيون من الكتب كناشه

(١) اذا قرنا ما عناه الاقدمون بالاسقسات بالخلايا والاعضاء في الطب الحديث ، بان لنا طرف من حقائق الطب عند الاسلاف.

الصغير، اثنتا عشرة مقالة، وكتابه الصغير، وهو المشهور: سبع مقالات. ونقله الحديثي الكاتب لأبي الحسن بن نفيس المتطبب في سنة ثمانية عشرة وثلاثمائة، وهو أحسن عبارة من نقل الحسن بن البهلول الأوالي الطبرهاني، ونقله أيضاً أبو الفرج ابن الطيب، وهو أحسن من الكل.

ومنهم أنطيلس، وظلاوس، وسندهشار، الفهدان، أبو جريج الراهب، أوريباس، وبيوس البيروتي، سيورخنا، فلاغوسوس.

ومن هذه الأسماء ما هو اغريقي، وفيها ما هو سرياني.

ثم عيسى بن قسطنطين، ويكنى أبا موسى، «من جملة أفاضل الأطباء». وله من الكتب كتاب الأدوية المفردة، وكتاب البواسير وعللها وعلاجها.

ومنهم أروس، ومرجيس الراس عيني، وهو أول من نقل كتب اليونانيين على ما قيل الى السريانية، «وكان فاضلاً وله مصنفات كثيرة في الطب والفلسفة».

ومنهم أنطوس الآمدي صاحب الكناش المعروف «بيقتوريا»، وغريغوريوس صاحب الكناش، قال ابن أبي أصيبعة — «وأكثر كتب هؤلاء موجودة، وقد نقل الرازي كثيراً من كلامهم من كتابه الكبير الجامع المعروف بالحاوي».

جاء في كتاب طبقات الأطباء: مترجماً الطبيب عربي من كنانة:

«عبد الملك بن أبجر الكناني: كان طبيباً عالماً ماهراً وكان في أول أمره من الاسكندرية. لأنه كان المتولي التدريس فيها من بعد الاسكندرانيين[1] الذين تقدم ذكرهم. ذلك عند ما كانت البلاد في ذلك الوقت لملوك النصارى. ثم أن المسلمين لما استولوا على البلاد وملكوا الاسكندرية أسلم ابن أبجر على يد عمر بن عبد العزيز، وكان حينئذ أميراً قبل أن تصل إليه الخلافة وصحبه، فلما أفضت الخلافة إلى عمر في صفر سنة تسع وتسعين للهجرة، نقل التدريس الى إنطاكية وحران وتفرق في البلاد».

وغالب الظن أنه منذ ذلك الوقت أخذ نجم مدرسة الاسكندرية يأفل، وذلك في أواخر القرن السابع الميلادي كما أفل نجم مدارس أثينا عند ما أغلقها في القرن السادس الميلادي الامبراطور يوستنيانوس البوزنطي.

اسماعيل مظهر

(١) يعني الاقارطة والسريان.

عانس

وقفت تطالع في كتا ب الكائنين أسرار الوجود
وتدير مقلة وامق في ضحة الأفق البعيد
وعلى محيّاها الذهول ولوعة الأسف الشديد
يا ليت شعري ما يجنّ الصدر من وجد جديد ؟
بحرٌ من اللذات يعصف عاتياً في كل جيد
والشهوة الحمراء في الشفتين تبرق عن وعيد
في كل ربع رقعة الـ ـشكلي لها عند اللحود
والذكريات بصدرها نار تلظت بالوقود
... فلقد شجاها أن شمس العمر تجنح للركود
وطلائع الشيب الذميم تنم عن خطب أكيد
يا خيبة الحلم السعيد وضلة الرأي الرشيد
ولّى الشباب ونفسها لم ترو من كأس الوعود

* * *

قامت تجمجم من أسى أحشاء ذي شجن عميد
وخلال أضلعها سجين ناء من عبء القيود
يهتز من مضض الجوى أسفاً لهاتيك العهود
وتثيره ذكرى الشباب وضاحك العمر الرغيد
فتخاله ناقوس دير راح يقصف يوم عيد
يا خيبة الحلم السعيد وضلة الرأي الرشيد
ولّى الشباب ونفسها لم ترو من كأس الوعود

دمشق — عرنان مرزم بك

الاطفال

عشراء الوحوش [1]

قرأت نبأ ذلك الغزال الآدمي فعادت بي الذاكرة إلى أكثر من نصف قرن حين كنت طالباً صغيراً بمدرسة الأمريكان بحي الأزبكية بالقاهرة حيث منحت وقتئذٍ جائزة هي كتاب (قلادة النحر في غرائب البر والبحر) وذلك لفوزي على الأقران في الدراسة في ذلك الزمان.

وما أذكره حتى الآن وقد فقدت هذا السفر النفيس وأسفاه منذ جيل أنه من مطبوعات بيروت. وما برحت أذكر كذلك البحث الذي تضمنه بشأن عشراء الوحوش في القرن الماضي. ودار الزمن دورته فوقع نظري ذات يوم على كتاب مدرسي كان يدرسه نجلي الأصغر إذ كان طالباً بمدرسة حكومية — بالقسم الثانوي، وأعني به (الجزء الأول من كتاب المطالعة للمدارس الثانوية، المطبوع بالقاهرة سنة ١٩٣٠ فتصفحته فعثرت فيه على النبذة التالية في الموضوع نفسه: —

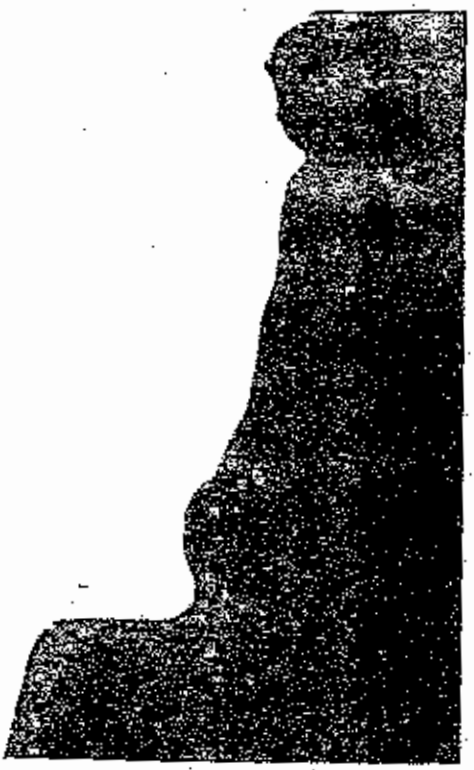

صورة الغزال الآدمي

على أن لبعض الذئاب ببلاد الهند فضيلة لا يحسن أن نسكت عنها، فقد ثبت أن بعض صيادي الهند عثروا في أثناء صيدهم على ذئاب تقبلها أطفال من بني الانسان كما يتبع الأليف أليفه، والولد أمه وأباه، ولكنهم يعثرون على أربع ويطحنون معهم الى الكهوف والمغارات وإذا حزبهم الأمر وأحاط

(١) بمناسبة ما رواته الصحف بشأن الغزال الآدمي، رأيت أن أشرح هذا الموضوع فيما يلي: —

بهم الصائدون عوى كما تعوى الذئاب ، ينفرون من الإنسان متى وجدوه ، ويستأنسون الذئب إذا صحبوه . وفي ذلك المعنى قال الشاعر : —

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى وصوّت إنسان فكدت أطير

فقد هؤلاء الاطفال أهلهم بنكبة من نكبات الهند فحنّت عليهم الذئاب وعطفت عليهم عطفها على أجرائها حتى صاروا لا يعرفون سواها ، واعتادوا المعيشة معها وفقدوا كثيراً من ميزات الإنسانية والمدنية . تمّ محروفه .

وإليك ما جاء في المراجع الانكليزية : —

إن أحدث الحوادث التي من هذا القبيل حكاية الولدين الهنديين المتوحشين وهما آمالا وكامالا اللذان وجدهما الروّاد سنة ١٩٢١ عائشين مع الذئاب في كهف من كهوف تلك البلاد ثم قصة « لوكاس » وهو صبي من أهالي جنوب أفريقية ، ربّته القرود وعاش معها حتى أتيح إنقاذه من وسطها ، ذلك أنه وجد حوالي سنة ١٩٠٣ وهو يناهز الرابعة عشرة من عمره ، فصارت حادثته أولى الحوادث الحقيقية للاطفال الذين تبنتهم الحيوانات الثديية وربتهم .

ومما ينبغي ذكره في هذا العدد أن صحف جنوب أفريقية وأوروبا وأمريكا ، ظلت أكثر من عشر سنوات تروي لقرائها من حين الى آخر . روايات رائعة على ذلك الغلام العجيب . وكان أول حديث بشأنه ، الخبر الذي أرسل من مدينة يوهانسبرج إلى أمريكا ، عن طريق شركة التيمز النيويوركية ، فأذاعته على قرائها في عددها الذي صدر يوم الاحد ٢١ أغسطس سنة ١٩٢٧ . وإليك ما جاء فيه برمته : —

« كان جنديان من الفرسان القدماء في بوليس مدينة الكاب ، يرتادان أحد مجاهل الأصقاع النائية في الجنوب الشرقي من مدينة الكاب ، فصادفتهما شرذمة من القرود ، يلعب بعضها مع بعض ، في حوض كانت أرضه قد مهدت وأعدّت للزراعة ، وكانت القرود تعيث فيها فساداً كأنها أطفال تلهو وتمرح ، فلم يرق عيشها أحد ذينك الفارسين . فما لبث أن طاردها وأطلق عليها عياراً ناريّاً من عدّارته . فولت الأدبار على الفور ، بيد أن مطارديها لحقا قرداً منها ، وقد تخلف عن قافلته من فرط إعيائه ، على حين كان زملاؤه يجدون في الهرب تخيل الفارسين أول وهلة أن ذلك القرد قد أصابه الطلق الناري فجرح فسارعا إليه ليقبضا عليه ، فدهشا دهشاً عظيماً إذ تبينا أنه صبي وطفل لا قرد وحتى لا ينقصه شيء إلا موهبة الكلام كما يفهمها بنو البشر ، إذ كان يُهشّهم [1] كالنساس ، كلما دنا منه الفارسان ليأسراه ،

(١) الهشة ترديد الصوت في الصدر

ثم يقفز حولها على الاربع ، حتى تظفر عليه . وما إن وقع في أسرها ، حتى ستيط في أيديهما ، إذ لم يدركا ما ينبغي عمله نحوه .

فعمدا إلى الكفور القريبة منهما قصد الاستعلام عن أهله فأخفقا إذ عرضاه على أبناء وطنه جميعاً فلم يعرفه أحد منهم ، ومن ثمة بقلاه . لى معهد من معاهد الأمراض العقلية حيث أقام زهاء سنة ، لم تبدر منه في خلالها أية بادرة تعن على ميله إلى الرذيلة ، مع إنه كان عربيداً منعوفاً بالمراوغة ، وهما من الصفات التي اكتسبها من معاشرته للقرود . ولم يكن في وسعه أن يتبس ببنت شفة . وكان يقدم له ألذ أغذية المستشفى فلم يستطيبها ، بل كان يؤثر عليها القرة الخضراء والتين الشوكي ، فيتناول منهما ثلاث وجبات يومياً . وما برح حتى كتابة هذه السطور في أواخر سنة ١٩٢٧ ملازماً عادته القديمة في غذائه ولا سيما شراهته في أكل التين الشوكي ، فقد شوهد في جلسة واحدة يلتهم ٨٩ تينة منه .

ومع حقيقة أنه كان يبدو عليه شدة الميل إلى السير على الاربع ، بدلاً من الوقوف على ساقيه والاعتماد عليهما وحدهما في المشي ، فقد استدل المشرفون على ادارة المستشفى العقلي ، إنه لا يصلح للاقامة فيه ، لأن كل ما كان يفتقر إليه هو التدريب فحسب . وحينئذ صمم أحد أرباب الاطيان ، من أخيه الموظف بذلك المستشفى قصة الغلام العجيب . فعرض على ولاة الأمور ، أن يتسلمه ويجعله في كنفه ، فلبوا طلبه وسلموه إياه . وكان جسم لوكاس حينئذ مشوهاً بآثار جروح يخيل لناظرها أنها نتيجة عضات أليمة ، لم يعرف لها سبب . غير أنه لما تعلم الكلام فيما بعد ، أخبر سيده صاحب الضيعة أن الندبة [1] الكبرى الباقية في قفا رأسه كانت نتيجة رفسة لعامة .

وظلت نزعاته القردية مبعثاً لاستياء المحيطين به ردحاً من الدهر ، وكان أحب شيء اليه مناوأة القطاط التي تعيش في الضيعة . بيد أنه كان من بدء أمره يلزم الأدب والطاعة مع الناس ، والحب للاطفال ، فأصبحوا يعولون عليه كخاضن لهم . وناهيك به حاضناً

أما في الآونة الحالية فقد أصبح لوكاس بلا شك أنعم خادم في المزرعة المشار اليها ، ولا غرو فهو لا يكترث لوقت ، ولا يعوقه الفجر أو المساء عن الاضطلاع بأعباء أعماله . ولذلك يعهد اليه دائماً في أداء أي عمل في أي وقت ، فيلبي الأمر ، ويثابر على المطلوب منه القيام به مثابرة خليقة بالاعجاب ، جديرة بالثقة المعهودة فيه ، فيفوق أي عامل من العمال

(١) الندبة ـ أثر الجرح الباقي على الجلد والجمع ندب وآداب وندوب

الوطنيين الذين في دائرة اقليمه . وأضحى في وسعه التكلم باللغة الانكليزية كلاماً جيداً إلى حدٍّ ما . ولكنه لا يفهم شيئاً من لغات بني جلدته ، مع أن أعماله تجعله مرتبطاً ببني وطنه ارتباطاً دائماً . وفي هذا الصدد كتب المستر مكيس المحرر بجريدة ستار ، التي تصدر في مدينة يوهانسبرج التقرير الآتي نصه بشأن هذا الصبي الغريب ، ثم نعت ما كتبه الى الدكتور دارث عميد جامعة Witwatersrand (وصحة نطق هذا الاسم هي فيتفاترزرانت ، في جنوب أفريقية . واليك خلاصة ما يلي : —

إن القصة التي قصها علي المستر جورج ه . سميث ، صاحب مزرعة (تورنهيل) ، وهي مقر لوكاس منذ ٢٨ سنة كانت آخرها سنة ١٩٣١ مطابقة كل المطابقة لما رويته عليه الصحف الأمريكية .

وتحرير الخبر أنه في سنة ١٩٣١ صار لوكاس يناهز الاربعين من عمره وأن سيده يعترف بحسن سلوكه ، وجده في عمله وأنه خير معوان له . وهذا الى جانب طاعته التامة ، وذكائه المفرط ، مع العلم بأن ذلك الذكاء لم يظهر عليه إلا من بلوغه الثانية عشرة من العمر ، ثم سرد المستر سميث تاريخ حياة لوكاس فقال : —

قضى لوكاس طفولته بين القرود ، وهذا امر نحن على يقين منه ، ليس بالأدلة التي تحويها هذه القصة وحدها ، بل بالمشاهدات التي شاهدتها بنفسي فيه ، والتي عرفها غيري في خلال الحقبة المديدة التي قضاها لوكاس في ضيعتي . ودليلنا على صدق أقوالنا ، الصورة الجانبية لوجهه ومراوغته ، وطول ذراعيه ، ونمو ردفيه نمواً شاذاً ، وتنكيس رأسه ، واهتزازه دائماً ، والخدوش التي في أعضاء جسمه وصابته ، ثم الذعر الغريب الذي يعتريه ، وتكشيره عن أنيابه ، وهذه صفات كلها براهين دامغة تثبت يقيناً أنه كان في حداثته معاشراً للقرود . ثم أن وجهه لا يشبه في القرود لأنه ولد ميلاداً طبيعياً لا غبار عليه . وإنما عاداته التي اقتبسها من معاشرته للقرود هي التي جعلته يختلف اختلافاً بيناً عن بني جنسه . وتكلم المستر سميث في مسألة أصل لوكاس ، فنقل القصة التالية الخاصة به موقناً بصدقها فذكر مضمونها وهو أن لوكاس حينما كان طفلاً صغيراً تركته أمه نائماً ذات يوم وقصدت الى أحد الحقول لتعزق أرض الذرة . ولما أتمت عملها هناك ، عادت إلى كوخها فلم تجد طفلها ، فاعتقدت حينئذٍ أن القرود قد سرقته ! وشرح المستر سميث كيف تمكن من ترويض لوكاس قائلاً : —

لقد قضيت أشهراً دون استطاعتي إصلاح حاله ، إذ كان همجياً ميالاً للأذى فوجدت

تضمي مضطرًا إلى ضربه بالسوط ولا سيما عند تحذيره من العادات الحيوانية القذرة ومنعه من ارتكابه إياها في الدار وحولها . وكانت حاتيك العادات تشبهها في القطة ، ومنها بغضه للماء وإحجامه عن الاغتسال به ، وما كان في وسعي التفاهم معه لانه لم يكن يعرف أية لغة بشرية مهما تألقت بضع كلمات إنكليزية فلم تلبث ذاكرته وذكاؤه أن تنبها فطرأ عليهما انقلاب عظيم . وبلغ من حسن استعداده لتعلم أن أحد بعد مضي سنوات ، يسرد لي كيف كان يدترك مع القرود وهو عشيرها ، في سرقة بيض النعام من أداحيه [1] فرفسته إحدى هذه منها فجرحته جرحاً دامياً في رأسه وهو الجرح الذي ما زال أثره باقياً فيه الى اليوم .

* * *

ولم يكن ذلك الفتى يعرف أي لسان من لغات بلاده ، وانما كانت معلوماته جميعها محصورة فيما تلقاه عني من الكلمات الانكليزية القليلة طيلة إقامته في كنفي » .

أما لوكاس فقد بسط تاريخ حياته كما هو مثبت في السطور الآتية : —

« أصرّح أنا لوكاس الصبي القردي المستخدم لدى المسترج . فحيث صاحب ضيعة ثورنهيل بدائرة باذورست (بمركز الكاب) بأني غدوت أستطيع ذكر بعض حوادث مما وقعت لي طوال معاشرتي للقرود ، حيث كان غذائي يؤلف غالباً من الصراصير وبيض النعام ، والتين الشوكي والذرة الخضراء وعسل النحل البري . وقد رقصتني في رأسي لعامة بينما كنت أهجم على أدحيها وكثيراً ما لسعني النحل عند ما كنت أسطو على خلاياه . وقد تسلقت مرة صخرة شاهقة وغرة منتبهاً عن اي شيء أتلذى به ، فزلت ساقي اليسرى فهويت الى الحضيض ، فكسرت تلك الساق . ولبثت طيلة معاشرتي للقرود أسير على الأربع وأنام في الأدغال عاري الجسم كل الفري . وكنت ذات يوم أبحث عن القوت مع زملائي القرود فأطلق علينا فارسان ، عيارات نارية من مسدساتهم ، فحاولت الهرب بكل ما في طاقتي ، فشلت ، فقبضا عليّ ، ثم حملني أحدهما على جواده . ويؤسفني الآن أني أجهل المكان أو المركز الذي وجدني فيه ذلك الفارس » . ☒ التوقيع هكذا وهو يقوم مقام لوكاس .

عرض جثري

---

(١) الادحي — ضم الهمزة وسكون الدال — الموضع الذي تبيض فيه النعام وهو فعل وزن أفعول من دحوت لانها تدحوه برجلها ثم تبيض فيه وليس فعالة مثل .

برلمان الطبيعة

لقد رشّحت يا أفقُ السحابا ... وقد أجرَت رياحك الانتخابا
فأحجم فاقدُ العبرات عنه ... وأقدمَ من له دمعٌ تنابا
فأصبحنا نشاهد « برلماناً » ... يردّ الشمس لابسةً ثيابا
وينظر للبسيطة وهي ظمأى ... فيسقيها مدامعه العذابا
ولولا أن أدمعه عذابٌ ... لكانت عيشة الدنيا عذابا
فألق بنظرتيك عليه تعجبْ ... له ، وكفى به عجباً عجابا
أراتكُ من رياح الله تحنو ... على التواب ، حاميةً حِمابا
ودارٌ قد بناها الله سقفاً ... ولم يجعل لها جدُراً وبابا
ونوابٌ شحاحٌ في رضاهم ... كرامٌ إن همُ انقلبوا غضابا
تحاماهم مشيبهمو فشبنا ... وظلوا في معاليهم شبابا
ويا عجباً أراهم ، مع صباهم ... ورفعة قدرهم ، لبسوا اكتئابا
هل اغتربوا فلوا القرب منا ... أم اغتربوا فلوا الاغترابا ؟
تعالى الله ، هذا برلمانٌ ... أطاب لنا معيشتنا ، وطابا
رسالةُ غيره كلمٌ ، ولكن ... رسالته بؤديها « انتخابا »

شاعر البرازيل

الصراع

في العالم العربي

يقولون : إنّ العالم العربي قد جنى عليه موقعه الجغرافي شرّ جناية . فلو لم تكن بقاعه مفترق طرق ، لما وطئت قدم أجنبية ، وعاش بمنجاة من الحرب والفتح . لكن هذه البقعة من المعمور — العالم العربي — لم تكن ميداناً للصراع العسكري فقط ، بل كانت ولما تزل ميداناً تتصارع فيه الحضارات . والقوى العسكرية التي تتصادم وتتطاحن قد تدول وتتوارى ، لكن أثر الحضارات يترسب في أعماق النفوس وتتوارثه الأجيال ولن يتمحى . ويستطيع الجيل الجديد الواعي المثقف في العالم العربي أن يعاجد غيره من شعوب الأرض قاطبةً ، لأن بلدانه كانت بمثابة مسراح صبت فيه الحضارات القديمة ، التي رأت النور على شاطىء المتوسط ، زيوت اختباراتها وتجاربها ، وثمرة تفكيرها ، وحتى خيالها وآلامها . ولئن اشتهر الشرق بالجمود ، والمحافظة على قدسية الأثر الذي خلفته الأجيال الغابرة ، فالعالم العربي ، وهو جزء من هذا الشرق ، يتميز بالقلق والتلوّن وقابلية التكيف والقدرة على التمثل . ولئن احتدم الصراع بين فئاته ، وتباينت آراؤها . واختلفت مذاهبها الفكرية ، فذلك دليل على الحيوية ، وغنى التراث المتراكم — من قديم وحديث — والإرادة المتحفزة المتوثبة التي تبغي الأحاطة بكل شيء . ولا بدّ في السياق الطويل من أن يعقب هذا الصراع سلامٌ تنصرف فيه النفوس للإستمتاع بثمرة الحضارات.

إن الحضارة الغربية الراهنة ليست إلاّ درجة في السلم المؤدي إلى الحضارة الانسانية الشاملة . ويستحيل على أي كان أن ينسبها لشعب من الشعوب ، أو أمة من الأمم . ذلك لأن هذه الحضارة قد نمت وعمقت وتفرعت حتى تعذرت علينا الاحاطة بها وفهمها وتمثلها ، فهي قد امتصت مادية جميع الحضارات التي غبرت ونشأت عن مساهمة أمم شتى ، وغمرت أمواجها بدون نزاع مشارق الأرض ومغاربها . وتأتى الحضارة العصرية من الظروف الملائمة

لسعة الانتشار، ما لم يتأتَّ لحضارة سلفت. ولا يعود السبب في انتشارها إلى سرعة المواصلات فقط، وأساليب الإذاعة الحديثة التي ابتدعت لها، كالصحافة بأنواعها والسينما والراديو، بل إلى الطابع البشري الذي اتسمت به. أما الحضارات القديمة فيمكننا، إذا ما استعرضناها أن نردها إلى الشعوب التي تمخضت بها، وتلبس طابع الأمة التي ربَّتها، ولم تكن تلك الحضارات الشهيرة، سواء منها التي ظهرت في سوريا، أو في مصر، أو في العراق، خاصة بهاتيك الأمم فقط، بل كانت ثمارها نتاجاً على فئة خاصة من الأمة، ولذلك بات النصيب الانساني فيها ضئيلاً هزيلاً لا يؤبه له. وإلى هذا، لا إلى غيره، نعزي سبب أفلبية تلك الحضارات، وركود نشاطها عند تخوم البلاد التي ظهرت ونشأت فيها، ولا بدَّ من أن يكون قد وضع منها شيء الى الأقاليم المتاخمة، المستعدة لتلبس ألوان تلك الحضارة، المتشابهة الى حدٍّ ما في الصفات العرقية المستمرة، وطبيعة الأقاليم، وتكوين الأرض، ونظم الحياة الاجتماعية والعقائد الدينية. أما الأصقاع البعيدة فقد استحال عليها أن تتأثر بها وتغمرها أمواجها. ولهذا السبب عينه نرى شعوباً قديمة بلغت درجة عظيمة من الحضارة البشرية، بينما ظلَّ غيرها يتسكع في ظلام الجهل والغباوة. ومن السخرية المؤلمة أن يتخذ البعض هذا السبق سبباً للتمجد والمباهاة. ولو عقلوا لفقهوا أن الأمم كالأفراد لا تولد جميعها في عام واحد أو في قرن واحد، بل لا بدَّ لها من أن تمر في أطوار الحياة الرئيسية الثلاثة من ولادة فشباب فهرم. وأن هناك أمماً قد شبَّت باكراً وأخرى قد شبت متأخرة. وإننا لا نستطيع أن نتبين العلل التي أدَّت الى النهوض الباكر، أو التي أخرت الظهور وفاتت النمو. وأكثر الحضارات القديمة لم تبرح موطنها الأصلي وتنتشر إلاَّ عندما كانت تكفلها قوة عسكرية يكتب لها الفوز في الحرب. فالاسكندر حمل إلى سوريا ومصر الحضارة الأغريقية، وطلع العرب على العالم من جزيرتهم بدين جديد تدعمه قوة عسكرية لا يستهان بها.

أما الحضارة الغربية الحديثة فانها استطاعت أن تنتشر في الأمصار القريبة والبعيدة، وتغزو العقول والقلوب، وتطور المجتمعات التي تتسرب إليها، معتمدة في ذلك على أساليب الاذاعة التي ابتكرتها الصناعة الحديثة من صحافة ومؤلفات ومواصلات لاسلكية وسينما.

ومن أبرز خصائص السيدنا أنها عملت على نشر ألوان المعيشة ومظاهر الحياة وتنوّع الأزياء واختلاف الألسنة وفنون الأعمال والعمران . وعدت الى الماضي فبعثت أهليه بسحنهم وأساليب حياتهم وطرق معيشتهم وشكل منازلهم وغربت وشرقت بهم .

ولقد قدّر للشرق العربي أن يتصل بالغرب منذ أوائل القرن التاسع عشر . لكن هذا الإتصال كان قصير الاجل ، محدود الأثر ، وسبب ذلك يعود الى البيئة المتأخرة التي كانت تحيا فيها أمم العالم العربي إبان حملة نابوليون الى الشرق ، والى الذهنية التي كانت تسيّر تلك الأمم في مضمار الحياة ، والعين التي كانت تنظر بها الى الحياة والكون ، والقيم التي كانت تعتبرها وتجلها . ولم يثمر هذا الإتصال في إبانه في مصر ، ولم يكن له صدًى بعيداً في أرجاء العالم العربي ، لندرة الرءوس المفكرة التي تدرك ما تريد ، وتعرف ما لا تريد ، وعدم وجود زعماء حقيقيين يرون الزعامة وسيلة لا غراء الاصلاح الشامل لا واسطة للاستبداد والتسلّف وابتزاز الأموال . فهؤلاء لا غيرهم ، يمكنهم أن يسوقوا الشعب سوقاً إلى منابع العلم وحياض المعرفة ويطلقوا في الوطن تيارات جديدة . وهل هذا القول أكثر ما ينطبق على محمد علي ، ذلك الرجل الواعي المصلح .

ومن شأن الحضارات عندما تتلاقى أنها تتفاعل وتتناحر وتتصارع وتختلف حدة الصراع باختلاف الأمم ومقدار تفتحها وقابليتها للتكيف والاقتباس ، أو انكماشها وانطوائها على ذاتها ، والشبه بين الحضارات . ومما يزيد في الصراع أن الأكثرية الساحقة في كل أمة تعيش بمعزل عن نور العصر الذي تحيا فيه ، محافظة على نظرات فاسدة إلى الكون والحياة لا تتخلى عنها ، ولا تفقه معنى التطور وضرورته بغية الاستمرار في الوجود وكرامة الوجود . وإذ هذا الصراع ما زال ناشباً على أشده في العالم العربي منذ مطلع هذا القرن . ومرد هذا الصراع إلى صفة العالمية والشمول التي تتصف بها الحضارة الغربية العصرية . فمبتنا لا مفر لنا من الانصياع للوقائع والاقبال على خير ما في هذه الحضارة من خير يرتجى . إذ يستحيل علينا أن نضع أنفسنا في قماقم ، ونغمض العين ، ونصم الآذان ، كل ذلك كي نتجاهل عمداً التيارات الحضارية التي اطلقت فعمت الارض بأسرها . ولا بدّ لنا من أن نمضي جادين في الاقتباس عن الغرب الأوربي والغرب الاميركي ، ومن الخطأ القول أن الاقتباس يفقدنا

مميزاتنا الذاتيـة وخصائصنا القومية ويذيبنا في بوتقة الحضـارة الغربية . إذ ما من قوة ، مطلقاً ، تستطيع أن تجعل من الانسان كائناً جديداً غريباً عن خصائصه الأصلية العريقة ، الذاتية منهـا والعبرقيّـة ، لأن المرء لا يقوى أن ينجو من مؤثرات المجتمع الذي هو في أحضانه ، والبيئة التي يقطنها .

ومن مميزات الشعوب المتأخرة ، المتخلفة في مضمار الحضارة ، أن لا تكترث بالحضارة ولا تعيرها اهتماماً ، ولا تعلّـق آمالاً كباراً على الغد ، بل تسمر أنظارها في الماضي ، وزمنة بصلاحه وفساد الحـاضر . وتعتقد أن ما من فكر حديث إلاّ راود أذهان الأجداد ، وما من مخترع في العصر الحاضر إلاّ علقت به جذور تمتد الى الماضي السحيق الذي نجهله . فما لهجت الألسن مرة بالغرب وحضـارته ولخصائص الانسانية التي تتميز بها ، والفوائد الجمة التي نجمت عنها واستفادت البشرية منها في شؤون عيشها وحياتها ، إلاّ سمعنا من يتصدى قائلاً : إن الغرب مدين للشرق ، ولولا الشرق لما كان الغرب ، ونراه في العصر الحاضر يسدد الديون التي اقترضها عند ما كان لا يزال في أول الشوط . وأن هذه المدنية الغربيـة ، التي لا تنسب الى شعب معين أو الى سلالة معينة ، لم تنبت في أوربا وأميركا على نحو ما تنبت الكمأة والفطر ، بل ان بذورها جيء بهـا من الشرق ، سواء كانت روحانيـة أو مادية . ولئن يكن الشرق مهداً لحضـارات قديمة متعددة ، فليس من المقرر الثابت أن الحضـارة الغربية ابنة صحيحة لهاتيك الحضارات أو امتداد لها . فكما أننا نجهل جهـلاً تامّـاً جميع الطبقات الأرضية التي تجتازها قطرة الماء حتى تخرج من النبع ، فكذلك يستحيل علينا أن نعين كافة العوامل ، التي ساهمت وساعدت على نمو الحضارة الغربية وازدهارها .

وها هي ذي الحضارة الاسلامية — العربية بين يدينا ، فهل نقدر أن نعين كيّـا مبلغ ما أخذت وما أعطت ؟ وهل حدث لأمة أن نهضت دون أن تتوكأ على تراث غيرها من الأمم ، وتستغله أعظم استغلال ، وتتخذه أساساً تشيد عليه صرح حضارتها ؟ ومن الغريب أن يعمد الغرب إلى جميع الحضارات القـديمة ، ويقتبسها ويتمثلها وينشرها ، غالباً عنهـا رداءها الأصلي ، ساكباً فيها من روحه وتقاليده وعاداته ، بينما أظهر الشرق عجزه عن الاستفادة مما يوجد بين يديه . ولعلّ مرد ذلك إلى طبيعة الشعوب الشرقية القديمة التي اعتادت أن تحيط

العلم بهالة من الأجلال والقداسة والاعتبار، وطبيعة الغربيين الذين يعتبرون العلم مجرد وسيلة وأنه وجد لخدمة الانسان واسعاده ولذته. إنهم أنزلوه من برجه العاجي الذي سجنه فيه الشرقيون

ولغيري أن يصوب سهام النقد العنيف إلى الغرب لأمعانه في المادية . هذه المادية التي تتجلى في الحروب والنزعات الاستعمارية ، والكدح في سبيل المال ، والايمان المطلق بالعلم وقدرته على تفهم أسرار الحياة والكون . مع العلم أن ينابيع الحضارة الغربية تروّي صافية عذبة . ويستحيل على المياه أن تظل صالحة نقية من منبعها حتى مصبها . فإنها لا تقوى على دفع الأجسام الغريبة التي تلقى فيها وتكدر صفاءها وتفسدها وتجعلها غير صالحة . أما أنا فاني أومن إيماناً لايعتوره شك في ان العالم العربي ما اتصل مرة بالغرب إلا ونشأ عن هذا الاتصال والاحتكاك والاقتباس عصر ذهبي ونهضة جبارة في جميع نواحي الحياة وأبواب المعارف . وشاهدي على ذلك المساهمة الحقيقية من قبل سوريا ومصر في الثقافتين العظيمتين الخالدتين الاغريقية والرومانية . فقد عرفت كل من سوريا ومصر تينك الثقافتين وأثرت فيهما وتأثرت بهما ، وأخذت منهما وأعطتهما . ولا يزال العصر العباسي قريب العهد منا ، وان كان الاتصال تم يومئذ عن طريق غير مباشرة . فلا يجوز أن نقول عن العصر العباسي إنه امتداد طبيعي للعصر الاموي . وليس مرد ذلك الى النظم السياسية وألوان الترف التي سادت المجتمع يومئذ ، بل الى غزارة المعارف ولونها ونوعها التي صبت في المجتمع العباسي . لقد كان العصر الاموي يتسم بالعنصرية الشديدة المغالية . ولم تكن العنصرية في يوم من الأيام إلا ضيقة منكفئة ، تؤثر العزلة ، بدافع من الأنفة ، على الاتصال وما ينشأ عنه من أخذ وعطاء . لقد كان للعصر العباسي نوافذ تطل على الجهات الاربع ، فيتنشق النسمات التي تهب من الفرس والهند وبلاد الاغريق . ولعل أقوى النسمات وأكثرها شذى تلك التي هبت عليه من الديار الغربية، تلك التي تفاعلت مع الحضارة الاغريقية . ولهذا جاء نتاجه غزيراً متنوعاً ملوناً . ويقيني أن الشعوب الاسلامية والعربية لو لم تستنكف بدافع ديني وعنصري في آن واحد عن اقتباس اللغة اليونانية ، لكان لتراثنا القديم شأن يختلف كل الاختلاف عن شأنه الراهن . وانهم أخطأوا وأظهروا كلاً منبتاً عن العقيدة الدينية عندما افتتنوا بالترجمات — ويغلب عليها التهتم والايجاز والهوى — التي كانت تقوم بها الأقلام الدينية التي

ظلت تعيش في البيئة الاسلامية . ومن المؤكد والمعقول أن أولئك المصريين لم يسبروا غور الثقافة الافرنجية ، وأن تلك الترجمات لم تتناول إلا الامور التي كانت تشتد إليها رغبة الجمهرة من علماء الكلام ، للذب عن عقيدتهم في بيئة صاخبة زاخرة بالمذاهب والعقائد والآراء التي اعتمدت البحث والجدل .

ولقد تنوّعت الاسباب التي حدت بأبناء العالم العربي كي يقفوا من الحضارة الغربية موقف الحذر المتردد المتجفف . فطفق الكثيرون ينذّدون بهذه الحضارة ، ويلصقون بها التهمة تلو التهمة ، ويعتبرونها مفسدة للأخلاق ، هدّامة للتقاليد المتوارثة ، بزّاعة إلى الالحاد والاباحية ، عاملة على الانحلال الاجتماعي . ويجمل بنا ، حسب رأيهم ، أن نبني حول أفكارنا أسواراً نتقي بها الشرور التي تحاول أن تتدفق علينا من الغرب . ففي تراثنا القديم عنها غنى ، وفيه زاد وكفاية . وكما صلح هذا التراث في الماضي ، فلِمَ لا يصوغ إصلاح في العصر الحاضر ؟

وسبب هذه الحملة التي يشنها الجامدون الذين آلوا على أنفسهم أن لا يتقدموا قيد شعرة منذ نصف قرن في مضمار التفكير والرأي ، والذين لا يرون ضرورة في التطور ، ولا يفهمون تاموسه الفاعل فينا رغماً عنا ، هي الفروق العقيدية الكائنة بين أبنائه والغربيين أولاً ، وإلى الظروف والملابسات التي أدت الى الاتصال بالغرب .

إن تعرفنا إلى الحضارة الغربية لم يحصل بواسطة التطور البطيء في العلاقات والاحتكاك والتفاعل ، بل إن هذه الحضارة بكامل جهازها وتقادم عهدها ، وعظيم أسرارها ، وغنى تراثها ، قد جاءتنا في إثر الحملات العسكرية الاستعمارية التي كانت تستهدف الشرق العربي . وهذه المفاجأة أحدثت في أممه بلبلة وتشويشاً ، لأن هذه الأمم لم تكن على استعداد تام لتحسّن وتتمثل حضارة صاهمت فيها أمم شتى طيلة عصور . ولم يدعنا الغربيون وشأننا ، ولم يعترفوا أن لنا خياراً في الأمر ، بل أطلقوا في مجتمعاتنا تيارات حضاراتهم وأذاعوا مبادىء مدنياتهم ، ونسفوا ما لدينا من نظم وتقاليد ، وأحلّوا مكانها نظماً حديثة لم تستنبط حرفاً واحداً منها ، ولم تفصل تماماً للبيئة التي تقطنها ، والروحية التي تعتنقها . ومن مميزات الشعوب المغلوبة على أمرها ، أن تنادم أداة مليّنة في يد الغالب ، لينة كالعجينة . يشيء

منها الصورة التي يشاء . وهـذا السلوك لا ينافي حقيقة الجماعات البشرية لدن اختلاطها بعد حروب . فالغالب يسعى ليوطد ويتمتع بالسيادة التي يتفوق فيها البناء أو الطارف ، التقدم أو الانحطاط ، تبعاً للرسالة التي ينوي أن يؤديها ، وتبعاً لاخلاص الأفراد الذين توكل إليهم تأدية هـذه الرسالة ، ونصيبهم من المثل العليا والانسانية . ومما أثار حفيظة المحافظين هو انتشار الحضارة في أرجاء العالم العربي وتغلغلها في جميع نواحي حياتنا . فظهرت آثارها بارزة في العمران ، وأساليب المعيشة ، والأزياء والمشارب ، ومرافق الحياة ، وفنون التفكير والاجتماع والاقتصاد والسياسة . وما معركة الأدب الجديد والأدب القديم إلا نتيجة متوقعة طبيعية نشأت عن تصادم الثقافتين . وإن اندحار تراثنا أمام الحضارة الغربية ولّد في القلوب شكوكاً وسوء ظن في صلاح هـذا التراث لمقتضيات الحياة العظيمة . وسوف لا أدعي فيما يأتي إلا بحث التطور الذي انتاب حياتنا الفكرية ، والتبديل الذي طرأ على مفاهيمنا في تقدير القيم والمثل ، وأحدث تغييراً كبيراً في نظرتنا الى الحياة والكون .

ماهي الأسباب التي أدّت إلى انقلاب في مفاهيمنا القيم والمثل ، ونظرتنا للكون والحياة ؟ إن السبب الوحيد الذي أحدث هذا الإنقلاب هو الثقافة الغربية . فقد انصبت علينا هذه الثقافة في أعقاب الحرب العالمية الأولى ، ولما تزل تتدفق . فأتيح لنا أن نتصل بهذه الثقافة مباشرة ، ونتردّها من منابعها ، ونتعرّف إلى أسرار تلك الحضارة ، والينابيع التي انبثقت منها ، وفقهنا علة النهضات في الغرب على اختلافها ، والانقلابات التي حدثت في سائر ميادين الحياة . لقد علمنا أن الغربي بدأ أولاً يتحرر من القوى الخارجية التي كانت تهيمن على شؤون حياته ، كالكنيسة ، والدولة الأوتوقراطية ، ومن النظريات الاعتباطية التي يكون الجهل مدادها والخوف لحمتها . والفضل في هذه اليقظة التي راودت أجفانه ، يعود إلى احياء الثقافة الاغريقية وانتباسها وتمثلها . وتمكننا من الاطلاع على مرامي المبادىء الديموقراطية ونموّها في أوروبا الغربية خلال القرنين السابع عشر ، والثامن عشر ، التي أحدثت الثورة الانجليزية عام ١٦٦٨ ، وتمت الغلبة فيها للنظم الدستورية على الإمتيازات الملكية ، وتكشفت لنا الثورة الاميركانية التي نشبت عام ١٧٧٦ . ولم تكن تستهدف الاستقلال السياسي فقط ، بل كانت تتوخى اقرار المساواة في الحقوق والواجبات . وفي عام ١٧٨٩ أضرمت

فيران الثورة الفرنسية ، ولعلها أعظم الأحداث طرًّا ، التي تمخضت عن حقوق الانسان والأقانيم الثلاثة « المساواة، والحرية، والاخاء » . وما من انقلاب سياسي أو اجتماعي أو علمي حدث عفواً ، بل مهد له أشخاص وقرنا بأسمائهم . فلا نذكر الثورات السياسية حتى يتبادر إلى الذهن إسم كرومويل وواشنطن، وفولتير، وروسو ... والأحداث الاجتماعية والاقتصادية مدينة لسان سيمون ، وبرودون ، وماركس ... والثورة على الكنيسة تذكرنا بلوثيروس وكالفن ... والانقلاب في النظرية العلمية تمّ بفضل جاليكو وكوبرنكوس ونيوتن وداروين وپاستور ...

ظلمنا قروناً تلو قرون ، ونحن نردد مع يسوع « لتكن مشيئتك » ونؤمن مع محمد أن « لا غالب إلاّ الله » . إن هذا الاسراف في الإيمان بالقضاء والقدر، انتزع من نفوسنا مبدأ المسؤولية وحرية المصير ، وقادنا إلى الاعتقاد إن الانسان لاتترتب عليه مسئولية ماضي هذه الدنيا . بل انه مجرد أداة تتلاعب بها يد جبارة تدعى القدر ، هذا الحصن الحصين من العقيدة التي تمخضت عنها الكتب المنزلة ، وقدمت أجيالاً ، انهارت انهياراً يكاد يكون تامًّا لدى أول اصطدام بالثقافة الغربية . وأخذ العالم العربي يعيد النظر في كل ما توارثه مجتمعه من أنظمة زمنية وعقائد روحانية . لقد آمن أن الله علة كل شيء في الكون . وبما أن الله علة كل أمر، فباتت جميع قضايا الحياة موسومة بمشيئته ، ولا حول للانسان في تبديلها أو تعديلها . أما اليوم فقد بدأ يعتقد أن الجمعية البشرية ، لا الله ، وما صلته من نظم جائرة ، وأورثت من تقاليد وعادات ومساوىء ومفاسد ، مسؤولة عن نتائج هذا الميراث . فليس الفقر الذي يجعل الحياة جحيماً لا يطاق آفة ربانية، بل هو خلل أخلاقي واجتماعي واقتصادي وسياسي . وليست الطبقات نظاماً أزليًّا ، ثابتاً كالطود ، مقدساً كالناموس ، وليست الأوثان الاجتماعية أرباباً . فالطبقات غير مستقرة ، وهي كالموج لا تنفك تعلو وتهبط تبعاً للعوامل والأحداث والانقلابات التي تنتاب الأمم والشعوب . فنشأ من هذا الاعتقاد ان من حق الانسان أن لا يقف مكتوف اليدين أزاء المساوىء العالقة بالمجتمع البشري . فكما أنه استطاع أن يحرر الطب من الكهانة ، وينزع غشاء الخرافة عن الأمراض ، كذلك حقق فصل وتمييز بين الهيئة الربانية والمساوىء الاجتماعية التي سببها الانسان . إن هذا المبدأ الذي تسرّب الى

العالم العربي وغزا عقول أبنائه ، وبات عقيدة راسخة ، هو أعظم حادث في تاريخ هذه البلدان منذ أن أنقذت من عبادة الأصنام ، ودخلت الله وحده بالإيمان والعبادة . ولهذا لا نعدم من يقول إن الغرب زعزع معتقدنا الديني وزرع الكفر في قلوب شبابنا ، ونسق التقاليد الجميلة التي سار عليها آباؤنا وأجدادنا . والحقيقة أن هذه الحرية الفكرية التي يمتاز بها الجيل الناهض ليست ثمرة الإلحاد والكفر بالله والمثل العليا ، بل هي وليدة الثقافة الحرة الشاملة العميقة التي تنمي في الفرد شخصيته الانسانية ، وتجعله يتعالى ويتحرر من العقلية الرجعية المسيطرة على مجتمعه ، ويخضع الكثير من حوادث الكون ومظاهر الحياة إلى العقل والمنطق .

خضعنا طويلاً وبكل طيبة خاطر للنظام الأوتوقراطي الأجنبي الذي اعتمد الأساليب الأوليغاركية كي تضمن له البقاء والقوة . ولم نثر يوماً لقلب نظام الحكم وفصله ونزيل مساوئه ومفاسده ، بل ثرنا مراراً عديدة على الأشخاص في سبيل أشخاص لا ينشدون سوى المنصب والجاه . وظللنا نؤمن ، إلى أن اتصلنا بالغرب ، ان السلطة تهبط من السماء ولا ترقى من الأرض . ولهذا لما تبرح ألسنتنا تلوك تعابير الذل والهوان والجهل التي خلقها العهد العثماني : الطريق للسلطان والماء للسلطان والأرض للسلطان . لهذا الضرب من الحكم خضع الشرق العربي أجيالاً ، لا جهلاً منه بمبدأ الدولة ، بل لأن قروناً طويلة من الجهل والظلم والفوضى ، ثلاثة أقاليم تذكر ما ذكرت السلطنة العثمانية تلك الدولة « العليمة » ، قد أرهقته وأماتت مواهبه وخنقت نشاطه .

وكما استطاعت الثقافة الغربية أن تنمي الشخصية الانسانية في الفرد ، وتنبهه وترشده الى الحقوق التي خصته بها الحياة وتدفعه دفعاً اليها ، فانها قد أيقظت في النفوس الروح القومية ونشرت النزعة الوطنية . فهل أتيح لشعوب العالم العربي ، فيما خلا من العصور ، أن تشعر هذا الشعور وتفكر هذا التفكير ؟ . لقد خاض ألوف من السوريين غمار الحرب العالمية الأولى الى جانب الترك العثمانيين ، وهم يعتقدون انهم لا يحاربون إلا في سبيل قضية مشتركة وهدف واحد : مصلحة السلطنة العثمانية وتثبيت دعائمها . ولم تمض إلا سنوات قلائل على انتهاء الحرب حتى اجتاحت سوريا الشمالية ثورة ترمي الى طرد الأجنبي واجلائه

عن البلاد ، ولئن كان نصيب تلك الثورة الفشل من الناحية العسكرية الصرفة ، لكنها عملت على إنماء الشعور القومي .

إننا بلغنا المرحلة التي بلغها الشعب الفرنسي قبيل عام ١٧٨٩ . ويساورنا الآن ما كان يساوره يومئذٍ من رغبة في الاصلاح يشمل شؤون الاجتماع والاقتصاد والسياسة ، ونقمة على النظام الأوليغاركي المستحوذ في أقطارنا على أزاحين السياسة الذين جعلوها عملاً متوارثاً خاصًّا بهم محتكراً في أسرهم . إن الطبقة الشعبية في العالم العربي بدأت تستيقظ من سبات طال أمده وتتعرَّف الى حقوقها في الحياة . ويتساءل أولئك الذين يرومون انهاض الشعب ويرغبون في الاصلاح الاجتماعي كما تساءل « سييّس » : ما هو الشعب ؟ — إنه كل شيء — وأي شأن كان له في النظام السياسي ؟ — لا شيء ؟ — ماذا يبتغي ؟ — أن يصبح شيئاً ذا قيمة » هذه الفكرة التي نشرت شراعها في العالم العربي هي بادرة التحرر من جميع الكوابيس وألوان الطغيان والظلم التي اتصفت بها القرون المتصرمة .

وربَّ قائلٍ يقول : وهل النظم الاجتماعية الحديثة التي انبثقت عن الحزبية خيرٌ من الأوتوقراطية التي ودعناها منذ أمد قصير ؟ لقد كان الملك يعد نفسه مسؤولاً أمام الله عن أعماله ، وليس للشعب أن يتطاول لمحاسبته ، أما الزعيم الحديث الذي تمخض عنه الحزب الذي يمثل إرادة الجماعة ، فمن ذا الذي تحدثه نفسه في محاسبته أو خلعه ؟

مما لا مشاحة فيه ان الأحزاب السياسية ظاهرة جديدة في مجتمعنا الحديث . وهي من جملة الأساليب التي تسربت إلينا من الغرب . فهي تقوم على تكتلات من سائر طبقات الأمة وتستند على مبادىء تستهدف خير المجموع وترمي الى اصلاح حياة الأمة من جميع نواحيها وهي ما أنشئت إلاَّ لتقضي على تلك التكتلات التي يزخر بها العالم العربي ، والتي تتغذى وتستمرئ من اعتبارات طبقية اقطاعية بالية ، ونظرات طائفية متحدرة من الحذر والذعر والمقت والتكتلات الطائفية هي بمثابة دائرة مغلقة لا يتفاعل فيها تفاعلاً مطلقاً حرًّا إلاَّ أفراد تلك الطائفة . وسوف تكون هذه الظاهرة حادثة فذَّة في تاريخنا الحديث وسبباً من أعظم الأسباب التي تساعد على تطور الحياة في أرجاء العالم العربي . لقد يتم ذلك إذا أطلقنا في أقطارنا تيارات المبادىء الصالحة السامية التي تتيح للإنسانية الكامنة في كل بشري أن

تتفتح وتتألف وتنمو وفق ميولها ونزعاتها ، لا التي تحارب النزعات الانسانية الصميمة كحرية العبادة ، وحرية العمل ، وحرية الوجود ، وتضحي بهذه المثل ، التي لا يسمو الانسان إلا بها ، لقاء هدف اقتصادي أو سياسي . والحرب بمعناه البعيد العميق مناوأة لاحكام القدر . هو علم ابرق عليه من لم يقدر له أن يولد في عهد النعيم ويرث الامجاد والامتيازات . وإننا لا نزال ننظر بامتعاض الى التكتلات الحزبية الحديثة ، ذلك لانها أكثر ما تتألف ممن ينشدون العدل الاجتماعي وإزالة المساوىء والغبن ، ولا نزال متأثرين بإرث الاجيال الغابرة التي حفلت بالتكتلات التي لم تستهدف سوى اغتيال القائم على شؤون الحكم واستلام المقاليد من يده وممارسة الاعمال التي يمارسها دون إحداث أي تغيير في الجوهر .

وليست الغرابة أن تتأثر المرأة بموجة التطور ، بل الغرابة أن تبقى بمنجاة من هذا التأثر والانفعال والاحتكاك . فلقد أتاح لها الاطلاع على الحركات النسائية في العالم ، ولكنها العلم الذي انتشر على درجاته ، ونشوء الصناعة الحديثة وازدهار التجارة وتنوعها ، أن تعمل وتكسب وتستقل اقتصاديًا . كل هذه العوامل حدت بالمرأة أن تطالب بالإنعتاق من ربقة التقاليد لتعيش في مساواة تامة مع الرجل . ولكي تبلغ هذه الاهداف لم تجد بدًّا من التكتل والتعاون وإنشاء المنظمات النسائية بغية نقل حقوق طبيعية قد سلبها إياها المجتمع البشري ، وبلوغ إمتيازات خص بها الرجل من دونها وما فتىء يتمتع بها منذ أزمنة طويلة متغلغلة في القدم . فهل تستطيع المرأة أن تتغلب على سلطان التقاليد التي اعتبرت الرجل متفوقًا عليها في كل شيء ؟ وهل تستطيع أن تتملص من وطأة النصوص الدينية التي حرمتها المساواة الحقوقية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، التي قضت عليها باعتزال المجتمعات والتحجب ؟ إنّ العامل الاجتماعي المتوارث والوازع الديني ، قد ولدا في قلب المرأة التي تعيش في بيئتنا شعوراً دينيًا إنها دون الرجل ، وثبطا همتها كي لا تطمح الى ما يطمح ، وإنها لن تبلغ من الكمال ما يبلغ لانها لم تؤت من المواهب ما أوتي . فوقر في ذهنها أنها خلقت لتسير في ركابه ، لا لتكون له ندًّا ، وأن تقوم على خدمته لا ليتعاونا في مضمار الحياة . فقنعت بهذا الحظ ولم تخطر الثورة يومًا ببالها . وإن التاريخ المالي وغير المالي لم يسجل

ثورة للنساء على الاطلاق . وليست العبرة في الحوادث الفردية المتقطعة الفورية التي تحمل طابع التمرد والغضب أكثر مما تتسم بميسم الثورة على أوضاع لا ترضي وتشدان أهداف تخلق الحياة خلقاً جديداً .

لا يزال الكثيرون يعتقدون أن المرأة الصالحة الفاضلة هي التي تلوذ ببيتها ولا تبرحه مطلقاً ، وتتحجب عن الرجل كي لا تلم عفتها وتقاوتها ، وتجهل كل شيء . وقديماً وجد على قبر امرأة رومانية : « غزلت الصوف ولزمت بيتها » . لئن كان هذا الضرب من الحياة هدف المجتمعات القديمة أو المتأخرة ، فلم تعد هذه المبادىء السلوكية تصلح أن تكون أساساً نقيم عليه صرح حياتنا العائلية . فالمرأة المثلى في الوقت الحاضر ليست تلك التي تطغى فيها عناصر الأنوثة على عناصر المرأة ، وليس الفخر أن تجهل ما جلّ ودقّ من شؤون الحياة وأسرار الكون ، وليست تلك التي تعيش عبئاً على ذويها وزوجها ، بل تلك التي لا تفيدها الأنوثة إلا لتؤكد خصائصها وتبقيها متميزة عن الرجل في كثير من الامور ، والتي تسعى لكسب المعرفة وتحصيل العلوم وتذوق الفنون على اختلاف أنواعها . وسوف تشتد الحاجة الى المرأة بمقدار ما تتطور امكانياتنا الاقتصادية وأحوالنا السياسية والاجتماعية . ثم ان الآلة قد عدت على المرأة وزاحمتها وبزتها فيما اختصت بها من الاعمال من كساء ومأكل ومشرب . فأصبح لا مفر للمرأة من أن تخرج الى الحياة لتقضي على السأم الذي ينتابها ، وتتعرّف العالم الذي عرفته في الكتب .

هذا هو الصراع العنيف الذي شرعت به المرأة في العالم العربي منذ مطلع هذا القرن . ويقيني ان المصلحين في بلادنا سوف يتساءلون عما اذا كانت المحافظة على وضع متوارث وعقائد متوارثة ، قضت بالتفاوت الاجتماعي بين الجنسين ، لا تؤخر نشوء المجتمع الامثل . فهل يكتب النصر للرجل تعضده تقاليد وشرائع مقدسة وتفوّق جثماني ، أم يكتب الفوز للمرأة ولا سلاح لديها سوى فتنة خالدة ، وإيمان مطلق بالحق ، وكفاءة مغمورة لو انطلقت من عقالها لقلبت أسس الحياة كلها وغيرت وجه التاريخ ؟ ! !

صافيتا (سوريا) الياس يعقوب

تلمس في الظلام

روحة في الظلام تقري فؤادي ذكريات تسمو لأعصر عاد
خاطرات فاض الجلال بجنبيها وصوت يجلجل الارعاد
أشأم الركب والثقا بمداد ما لقلبي يجد في أنجاد ؟
أيها الكوكب البعيد أفض لي بسنا خاض شاسع الأبعاد
كم ملايين عالم قد تلاشى وهو في سيره لهذي العباد
يا ترى هل درى بأني ساتي حين شق الأثير شطر بلادي ؟
أم درى انني أضيع أهدافي فقد جاء آخذاً بقيادي
تهت واضيعتي فذي السحب قد وافت لتفتاله على ميعاد
أشرقي يا نجوم فالقلب حيران وقد غشه غشاء الحادي
خلص الحي تحت موج غطيط وغرتني الأحلام دون رقاد
أأنا التائم الجد بأحلامي أم الحي ... ؟ قد أضعت رشادي
أنزفت حرة الحمى ثورة الحق فهل نافعي النداة حيادي ؟
أنا في باطلي استرحت فلا لاح لبوم الرشاد لجر هادي
واذا كنت في نعيم من الأحلام فليذك عسر في إيقادي
أنا في جنة بوحي خمار الروح فليمس في الجحيم مهادي
هيئتها خواطر باسمات ورمت من تفاؤلي بسهاد
ركبت سفرتي نهامه بيضاء وأضنى المطي طول السهاد
ريل قلبي تبددت بسمات الروح إذ ريع صبرها بنفاد
أتعب القلب باجتراء المآسي وزماني يأبى نفاد الزاد
رب موج قد خضته بادي الأهوال إذ هاج مرعب الأزباد
فتعاليت عامقاً غلا البحر اضطراباً ولا يضام بعادي
ثم إذ عدت صارخاً بالشواطي ردد الصخر رهبة ارعادي
ألفت روحي الظلام أنيساً إذ أتى النور بالمساوئ بادي
واحتست بالسكون سلوى بأرواح تغنت سحرية الانشاد

وإذا الوحش قد أغار فلم يعس كبني الانسان للفتك صادي
وألفت القبور إذ ميتة الارواح شرٌّ من ميتة الاجساد
أيها الراحلون خلفكم الحسران ما انفكَّ منكماً بالفساد
ولقد طافت والظلام بأكوام تراب زانت قرار الوادي
نه جلالاً فما أجلك وادي فيه دكت حواضر وبوادي
كم قبيل زاحمته بقبيل وبلاد طحنتها ببلاد
(ربَّ لحد قد صار لحداً مراراً ضاحكاً من تزاحم الاضداد)
أيها الراقدون هبوا لعصر النور ما يومنا بيوم رقاد
أوَمَا آن للقبور انبعاث في عصور أطغى صلد الجماد
غير ان الحياة عالم نقص ووجود مصيره لفساد
أترعت كأسها زماناً وعهداً أرأيت الاشواك في الاوراد ؟
لا تخالوا ابتسامها غير هزء ما حنى العطف منجل الحصَّاد
غيراً للوحاة يتلو فم الدهر سطور الارتاق والارغاد
غير أن الحنين من ضجة العيس أضاع المرمى وضلَّ الحادي
هو ذا الله في الوجود تجلى ببديع الآثار للروَّاد
في حياة النبات ، في عيش الطير وفي لثغة المزار الشادي
قال قوم أنى تعود جسوم أعقبت فارها خمود رماد ؟
وهبوط النفوس للعالم السفلي قبضٌ فهل تؤد الايادي ؟
غير ان الرموز تفنى ولكن مودعات البذور سرّ من السرّ (المعاد)
وكذاك الارواح تهبط للأرض ليكسبي الكمال (ذو استعداد)[1]
آه الصعب أن تسيرك الروح بعيداً عن قائل (الاتحاد)
ورنا راعه الوجود فهلاَّ رحموا عنه صرخة الميلاد
والذي حير العقول (وجود جوهري مجرد) غير بادي

(بغداد) ضياء الرميلي

(١) كما يرى فلاسفة الاسلام وابن سينا في طليعتهم

قصة مترجمة

أم من الجحيم

مرسيليا ، ذلك الميناء العظيم الذي يؤمه آلاف السياح والبحارة كل يوم ، ذلك الميناء الذي يجمع بين الفضيلة والرذيلة ، فبجانب كنائسه الأثرية ، ورهبان الكبوشيين الأتقياء ، تقع الأزقة المظلمة حيث تمرح الرذيلة في واد خصيب مفعم بالغانيات اللواتي يبعن لغويين وأجسادهن ، حيث يشرى الهوى الرخيص ، وتباع الأفئدة والأجسام . ومن هذه الأزقة المظلمة ، زقاق النساء ، مُتَنَفَّس كئيب فيه زمرة الساقطات ، وقد جذب اليه رواد اللذة البهيمية ، فتراه بحاناته الصاخبة ، ودور اللهو المنتشرة على جانبيه ، كأنه مرتع الشيطان ، أو قطعة من الجحيم . وفي منتصف ذلك الشارع يقوم منزل سكنته أسقط النساء أخلاقاً ، وأرذلهن طباعاً ، وأبعدهن عن الانسانية صفات ، كما أنه أردأ المنازل بناء ، وأوحشها مكاناً فكأنهما صنوان ، هي من ناحية الأخلاق ، وهو من ناحية البناء . إنها « جورجيت » دنت على الأربعين ، ممتلئة الجسم متوسطة القامة ، تحمل في وجهها طابع جمال قديم أفسدته الخمور وحياة اللهو والمجون . ولتلك المرأة عشيق يدعى « جون » وهو بحار قديم ضخم الجثة ، قاسد الفطرة ، ذو الطينة ، ذا وجه منقض قبيح . لبست فيه [illegible] هي بقية معركة أصيب فيها بطعنة سكين ، وهو فوق ذلك من الرجال الذين اتخذوا من قوتهم وشراستهم سبيلاً للتسلط على النساء الساقطات وابتزاز المال منهن .

وفي الغرفة الوحيدة بذلك المنزل التي يمكن أن تكون مسكناً لآدمي ، أو مأوى لحي يرزق أو لا يرزق ، جلست جورجيت الى جانب عشيقها جون يتناجيان الغرام مع كؤوس من خمر النبيذ ، وتجول في ذهن كل منهما أفكار عتيقة ، طالما مني كل منهما نفسه بتحقيقها ، يحدوهما اليأس لحظة ويدفع بهما الأمل أخرى . أما تلك الأحلام والخيالات فكانت لكل منهما خاصة بنفسه .

— لم هذا السكوت ياجورجيت .

— أفكر . . . لا . . . لا ياجون . . . ليس ببالي شيء .

— إذن ، فماذا ؟ أجئت لأراك كتمثال صامت ، أم هناك رجل آخر ! ! !

— كلاَّ ياجون — أقسم لك إني لم أفكر في رجل سواك ولم يخطر بفكري إنسان غيرك

وهنا يميل جون الى الوراء في مقعده بارتياح ويتناول كأسه فيشربه حتى آخره ، ويمسح شاربه الكث بطرف كمه القذر .

— اليك مفاجأة سارة ، سوف تتزوج ياجورجيت .

— تتزوج ! أتهزل أم لعبت برأسك الخمر ؟

— فضحك جون والطلق يقول بصوته الأجش ، كلاَّ لا تلعب برأسي الخمر ، ولكن جمالك الذي لعب بقلبي . قلبي الذي لم تتمكن مخلوقة سواك من الدنو منه ، جمالك قد ملك عليَّ مشاعري وطار بلبي ، لست هازلاً ياجورجيت — أتقبلينني زوجاً .

— بالطبع ياجون . فان نفسي لا تتوق إلى أكثر من هذا . . . ولكن . . .

— ولكن ماذا .

— لا بدَّ لي من الذهاب إلى أمريكا .

— أمريكا ، وما علاقتك بأمريكا ، وقد ولدت وعشت في مرسيليا فلم تغادريها قط ؟

— إنك لا تعلم ياجون ، فهناك دافع قوي يرغمني على الرحيل في أقرب فرصة .

وعلى بعد خمسة آلاف ميل من مرسيليا ، جلست فتاة في هايد بارك بأمريكا تردد تلك الكلمات « لا بدَّ لي من الذهاب إلى مرسيليا » . وهي فتاة طويلة القامة ، ممشوقة القد هيفاء ، ذات عينين زرقاوين فيهما سحرٌ ودلال ، ولها شعرٌ أصفر جميل مسترسل فوق كتفيها كأنه خيوط من الذهب ، وفم كالياقوت إذا أنتر فعن أسنان كأنها اللؤلؤ ، ووجه باسم ضحوك مليء بحرارة الشباب ، وبجانبها جلس « ديك موريس » وهو فتى وسيم الطلعة ، مهذب الأخلاق ، مثقف راقي التعليم ، بسم له الحظ فجمع الى الشباب والمال سعادة الحب وراحة البال فهو « وتيرز » متطابقان .

— أريد أن أرى مرسيليا يا ديك .

— لا مانع عندي يا عزيزتي تيرز ، فلنمض شهر العسل هناك .

— لا ياديك ، لقد أسأت الفهم ، إني أريد أن أذهب الى مرسيليا بمفردي قبل الزواج ، لأن هناك أمراً هاماً يدعوني إلى ذلك .

— ولكني ما سمعتك يوماً تذكرين مرسيليا ، ولم أعهدك أبداً تتوقين للذهاب إليها .

— لقد علمت أشياء كثيرة بعد وفاة المرحوم والدي ، فإن والدتي يا ديك ما زالت حيَّة ترزق .

— ما زالت حية ، وتقيم بمرسيليا أكانا يعلم أنك بقية الأم منذ فجر حياتك .

— هكذا كنت أعتقد ، ولكن ظهر لي من مخابرات برلين أطلعت عليها بعد وفاته أن لي أمًا ! أمًا لا تزال على قيد الحياة ، وتعيش في مرسيليا ، فصممت على أن أرى تلك المخلوقة التي أوجدتني في الحياة . أراها يا ديك فأنعم بحظها وحنانها وقد حرمت منهما منذ طفولتي .

— ولكن ما السبب الذي دفع والدك إلى إخفاء تلك الحقيقة عنك .

— لست أدري ، وظني أن كان هناك خلاف شديد بين أبي وأمي دفعه إلى إخفاء أمرها عني وإبعادي عنها ، وقد ظهر لي ذلك من خطاباتها وتوسلاتها إلى والدي ، واسترحامها إياه ورجائها الحار الشديد أن تراني . أليس من واجبي بعد كل هذا يا ديك أن أراها ؟

— أتعلمين أين تسكن .

— نعم ، إنها تسكن المنزل رقم ١٦ بزقاق النساء بمرسيليا .

* * *

وفي المنزل رقم ١٦ جلست جورجيت بجانب عشيقها يتبادلان الحديث .

— أما زلت مصرة على السفر لأمريكا .

— بكل تأكيد يا جون .

— إذن فلنتزوج أولاً ونرحل سويًا لتمضية شهر في ربوعها .

إرتسمت على وجه جورجيت أمارات الفرح والانشراح ، وارتمت بين يديه تقبله في حرارة وحنان .

— أحقًا ياجون سنصبح زوجين شرعيين ، ونقف أمام القسيس ، أنت بثوبك الأسود ، وأنا بثياب الزواج البيض ؟ . . . ثم تنحدر على خديها دمعة كبيرة .

— كفى هذراً ، إذهبي فأتنا بالخمر والنبيذ لنشرب نخب زواجنا .

تقبله جورجيت وتهرع إلى الخارج لتشتري خمراً ونبيذاً بينما ، ينتظرها جون مهللاً مستبشراً لاعتقاد شقيته انتظاراً للخمر في لهفة ظاهرة .

— إنك تضحكيني . ما بالك تطرقي الباب ، أذلك من عادتك . . . ادخلي

تدخل تيريز فيهولها منظر المنزل القذر وبشاعة الرجل الذي قزع من مكانه حال رؤيتها كأنه ذئب جائع أنقض على فريسته . فتراجعت تيريز الى الوراء بخطى مرتبكة ، وقلب ملؤه الشجون ، وأخذ صدرها يعلو ويهبط كأنه كير الحداد ينفخ بشدة ، وقالت لي في ارتباج :

— أهذا منزل مدام جورجيت

— «هاها ، وماذا تريدين من جورجيت» تعالي يا فتاتي» . واندفع نحوها مسرعاً قبل أن تولي منه وضمها بين ساعديه القويتين ، فضت تصرخ وتستغيث ، ولم يعرها ذلك الوحش الآدمي وأتى بها على السرير وارتمى الى جانبها محاولاً امكانها .

— « اتركها يا وغد » — فالتفت جون فرأى جورجيت على عتبة الباب وبيدها زجاجة الخمر تهدد بها وتتوعد وعيناها تشتعلان غضباً وغيرة وقلبها يخفق بالندم والحسرة .

***

ترك جون تيريز وتحرك نحوها في هدوء وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة ساخرة .

— أتحدثينني بهذه اللهجة يا ساهرة . ويرفع يده ويهم بلطمها فتهوي على رأسه بالزجاجة فتتحطم ويسيل منها الخمر مختلطاً بدمه . فيفقد الوعي وتجره جورجيت الى الخارج وترصد الباب ، ثم تعود الى الفتاة تريد افتراسها وتتمنى لو تمزقها إرباً إرباً . فقد كانت الهيام بها عشيقة أخرى لجون ، وهالها أن تجرأ على زيارته في منزلها .

— وأنت أيتها الفاسقة . . ماذا تريدين ؟

— لا أريد شيئاً يا سيدتي ، لا تسيئي ظناً ، فقد أخطأت منزل مدام جورجيت .

— لم تخطئي ، فأنا مدام جورجيت وماذا تريدين من مدام جورجيت ؟

وتنطلق في قهقهة عالية فتدوي تلك الكلمات في أذني تيريز فتنظرت الى المرأة بعينين يخال إليك أنهما تصلبتا ، وظلت كذلك برهة كأنها الدهر ، وارتمت على السرير ودفنت وجهها في الوسادة . وجسدها البض يرتجف من الانفعال ، وتتمتم بكلمات كالذهول . . .

أ أبي هذه العا . . . يا لتعاستي ويا لشقائي . . .

— سمعتك تقولين أمي . . فما بال والدتك .

— ويلاه . . . أنت أمي .

— « أنا أمك ! أأنت تيريز ، حبيبتي تيريز ، تعالي يا بنيتي لأضمك وأقبلك ألف قبلة فأروي ظمئي ولوعتي من وجهك الفتان وعينيك الجميلتين . يا لها من حلاوة اللقاء بعد طول الحرمان » وتندفع نحوها فاتحة يديها لترتمي في حضنها فتدفعها تيريز بالتبرز والاحتقار فتدرك جورجيت الحقيقة المرة المؤلمة ، وتتذكر أنها عاهر من بنات الشيطان وان تلك الفتاة البريئة الجالسة اليها تأنف من الانتساب اليها وتحمر خجلاً حتى من التفكير في أمومتها .

— يطرق الباب ، ويدخل ديك موريس ، ويتقدم الى تيريز ، مدهوشاً صائحاً . « تيريز ،

كل أصابك يا كروه ، يا إلهي ! ما هذه الغرفة ، ومن تكون المرأة ؟

— هي أمي يا ديك . ويلاه لقد تحطم مستقبلي واسودت أيامي ، فلن أستطيع بعد أن علمت تلك الحقيقة أن أقرن اسمي باسمك .

— دعينا من كل هذا يا تيريز ، ولا تكوني عنيدة ، فإني لك لا يقوم في سبيله شيء

— كلاَّ يا ديك فلن أرضى لك بهذا ، لقد كان المرحوم والدي محقًّا في ابتعادي عنها ليتني ما رأيتها وما علمت مكانها .

— أمازلت أبوك يا تيريز ؟ وتنظر الى ابنتها نظرة تنطوي عن أمر خطير .

— نعم ، رحمه الله

— أما وقد مات فلا داعي لاستمراري في تمثيل هذا الدور ، وتحطيم حياتك ، فاطمئني يا صغيرتي ، فاني لم أكن لك أمًّا ولم يكن غرضي الاَّ ابتزاز المال من والدك .

— أحقًّا ما تقولين ؟

— نعم ، أيتها الصغيرة ، كنت أعمل خادمة عند والدتك وألمست بالشقاق الذي كان بينها وبين أبوك ، وبعد موتها اغتنمت الاستفادة من هذا الموقف ماليًّا . أما الآن فقد انتهى دوري فاذهبي يا صغيرتي ، فان والدتك كانت امرأة من أشرف العائلات وأرفع من أن تحيا هذه الحياة التي أحياها .

انحدرت على خدي تيريز دموع الفرح وصاحت مهللة : أسمعت يا ديك ؟ انها القصة .

ابتسم ديك وقبلها ولكن لم يخدعه هذا التمثيل من جورجيت ، فان الشبه بين الأم والابنة كان أقوى من أن يحتمل الشك . تقدم المخطبيان الى جورجيت لمصافحتها وفي عين تيريز نظرات الفرح والانشراح ، وأما ديك فقد حدجها بنظرة كلها إعجاب وتقدير لتلك التضحية النبيلة .

* * *

وفي الصباح ذهب ديك الى منزل جورجيت ليشكرها ويقدم لها مساعدة أو ليبحث لها عن عمل ، فوجد بالباب جمعاً يتصايحون ، فتقدم من أحدهم سائلاً ، فعلم أن جورجيت الفاتنة قد انتحرت لأسباب لا يعلمها أحد . فيعود ديك متثاقلاً مطرقاً برأسه ويذكر أن هذه المرأة الساقطة ، إنما كانت تحمل بين جنبيها قلباً من ذهب .

محمد مبروك مظهر

عالم العين

شعر علي

هي العين أعجوبة الخالق ... تفنّد صفتها المارق
مجمّع شمل العوالم في ... مركز بؤرتها الدانق[1]
تلألأ بكوّة انسانها ... وتومض الأشعة من شارق
بها تتصيّد أنمى النجوم ... وتخطف اللمع من بارق
فلا تتصاعد الى شاهق ... الا السر ينقضّ من شاهق
فتتلوه في صفحات الضيا ... ء يذهب مع موجه الصافق

* * *

هي العين باب الخيال الذي ... يرحّب بالشبح الطارق
فزاحم فيه الخيالُ الخيالَ ... وألحقه انقاد لسابق[2]
خلايا الدماغ تمثّلها ... تخازن للخاطر الزائق
فعاقها الفكر يشتاقها ... عناق المشوّق للشائق
وشاد بها العقل عرشاً ... يُنَصّ لدولة منطقه الناطق
أذلّ الشعور لسلطانه ... وأخلى الضمير على العاتق
ولم يتمرّد سوى شهوة ... تعبثُ بطائمها الناعس
ألا كم فُتنتِ بسحر الجمال ... وكم كنتِ مفتنّة العاشق
وليس الجمال سوى ما رسمت ، ... رسومُ تخيلك الساوق
سرقتِ الطبيعة شكلاً ولوناً ... ولاقتر رسمك كاللافق
وزورت حتى الحقيقة حتى ... تماريت في فنك الماذق[3]
حسبت الجمال أتم وأسمى ... وفنك أفوق من فائق
يقوم الحقيق لدى ناقدٍ ... ويبوي مجازك من حالق
خلقتِ من الوهم حسناً خلتِ ... به الظن كالخلّب البارق
وما الحسن في قسمات الحبيب ... بل الحسن في مقلة الوامق[4]
ويختلف الذوق بين الأنام ... فما في الذوق بل الذائق

(١) الدانق الفاتر يقال دنقت العين اذا فارت (٢) اشارة الى تسلسل الافكار وانتقالها . فكل فكر أو خيال يقبه الى غيره (٣) الماذق الكاذب (٤) الوامق المحب

مليحك مج لنيرك والحب يملي البديع على الناسق[1]

* * *

وما الشعر إلا الذي كنته من السحر للشاعر الحاذق
فمنك المعاني ومنك المعاني ولست بباغ المجى الصادق
وكم كنت للقلب أدواءه وحملت وزرك العاتق
ورثت في الروض غيانة وجرم في صحنه الساحق[2]
أفي العدل أن تنعمي بالجمال ويلتاع في وجده الماحق[3]

* * *

عجيب : تراهقنا بالسهام وتبقى السهام مع الراشق
ويحرق قلب الشجي لحظها ويذهب التائب الطارق
كأن القلوب فراش ترامت على وهج ناظرها الخادق
وما الكهرباء كباروتها به رعدة الرامض الصاعق
اذا فاض شعشعُ أحداقها يفيض غرام الفتى الراشق
أتمرض تبغي مداراته ؟ فحسبك ذكراه من راعق

* * *

قبلت الغرام وأعطيته كذوبٌ يمنُّ على صادق
وكسر الجفون وسكر العيون هما شيمة الفاتن المالق
خفوق الفؤاد وطول السهاد هما لذة الهائم الغارق
لكم خاب فيك شهيُّ المنى وغررت بالأمل الواثق
إذا عشقوا كحلاً فيك تهت وأسرفت في كحلك الماذق

* * *

وما أنت إلا خليفة ضوء يريك صنى مجدك السامق[4]
فلولا الضياء لما كنت إلا صحينة سجن الدجى الناحق
إذا غاب عنك يغيب الوجودُ وتدقيز في وهمك الزاهق
فلا تتجني على القلب وهو المغذيك من دمه الدافق
ولا تطمعي النفس بالشاهيات فتهفو اليها بلا فارق
وعطفاً عليها ورفقاً بها كعطف الرفيق على الرافق
فيا كوكب الله في أرضه جلوت لنا عظم الخالق

نقولا الحداد

(١) الناسق الكاتب (٢) الساحق المبقي ، البيد (٣) الماحق المحرق (٤) السامق العالي

تخريج كتاب الملل والنحل

للشهرستاني [1]

— ٢ —

ا — التخريج العلمي

(١) قيمة التخريج العلمي : (أ) من أقوى الأسس لبناء نهضتنا العلمية . (ب) يجب علينا أن نقرر قواعده نظريًّا وعمليًّا . (جـ) كما يجب — أولًا — أن نعرض نماذج مختلفة منه . (د) أول ما يلفت النظر في أمر التخريج العلمي .

(٢) نماذج مختلفة للتخريج العلمي : (أ) مثال للإفراط : (١) تخريج جوزيف سوريال كتاب فرائد الذواوين لابن مماتي . (ب) مثال للتفريط : (٢) تخريج فيليب حتي كتاب مختصر الفرق بين الفرق للرسعني . (جـ) مثال للجمع بين الإفراط والتفريط : (٣) تخريج انستاس الكرملي كتاب النقود العربية وعلم النُّحَيّات . (د) أمثلة للتخريج المضطرب الحائر بين طرفي الغلو والتقصير : (٤) تخريج أرثر أربري كتاب التوهم في التصوف للمحاسبي (٥) تخريج يوشع فنكل كتاب ثلاث رسائل للجاحظ (٦) تخريج ألفرد جيوم كتاب نهاية الأقدام في علم الكلام للشهرستاني . (٧) تخريج باول كراوس كتاب مختار رسائل جابر ابن حيان . (٨) تخريج كراوس والحاجري مجموع رسائل الجاحظ . (٩) تخريج نيبرج كتاب الانتصار للخياط . (١٠) تخريج أحمد زكي باشا كتاب الأصنام للكلبي . (١١)

---

(١) هذا هو عنوان الرسالة التي قدمتها اللجنة الخاصة المؤلفة لذلك بدار كلية أصول الدين برئاسة سماحة الدكتور منصور فهمي باشا فهمي ، والتي حصلت بها على شهادة العالمية من درجة أستاذ بدرجة ممتاز في التوحيد والفلسفة من الجامعة الأزهرية بتاريخ ٢٤ من جمادى الثانية سنة ١٣٦٥ هـ الموافق ٢٦ من مايو سنة ١٩٤٦ م

تخريج احمد نسيم (دار الكتب) ديوان نهيان. (١٢) تخريج زيادة والد الكتاب اتعاظ الأمة للمقريزي. (١٣) تخريج زيادة كتاب السلوك للمقريزي. (١٤) تخريج احمد أمين والزين والإبياري كتاب الغدا للمقرئ ابن عبد ربه. (١٥) تخريج احمد أمين والزين كتاب الامتاع والمؤانسة لأبي حيان. (١٦) تخريج احمد عامر كتاب المحب سوء الكتم الأعجمي للصفدي. (١٧) تخريج مبهمي كتاب نعت الفاكهي للأزرقي — (١٨) تخريج ريتر كتاب مقالات الاسلاميين للأشعري — (١٩) تخريج ريتر كتاب الوافي بالوفيات للصفدي — (٢٠) تخريج مامي كتاب أبناء الزمن في أخبار اليمن لابن المجاور.

ب — ما تدل عليه هاتيك النماذج جملة

و — وجوب تقريرنا لقواعد التخريج العلمي وتثبيت مصطلحاته.

(٣) تقريرنا لقواعد التخريج العلمي نظريًّا: (أ) وصيات وحرص (ب) صبر وعذر (ج) ما يجب أن يكون عليه المخرج (د) الواجب على المخرج (هـ) ما لا بد منه للمخرج (و) متى نطمئن إلى التخريج العلمي ونعتمد عليه.

(٤) تمهيدنا لقواعد التخريج العلمي عمليًّا: (أ) اجمال المراحل العملية (ب) جمع المصادر وترتيبها.

(ج) نقد النصوص داخليًّا (١) حال وصولها من طريق المؤلف — (٢) حال وصولها عن طريق النساخ (٣) حال وصولها عن طريق الناقلين عن المؤلف. (د) نقد النصوص خارجيًّا: (١) الواجب على المخرّج (٢) التعليقات المقدمات. هـ — ثم لا بدّ من: (١) تقسيم الكتاب. (٢) وعمل فهارس له.

٣ — تخريج كتاب الملل والنحل للشهرستاني

(١) تخرّج ولهم كيورتن للكتاب: (أ) هل خرّج كيورتن الكتاب تخريجاً علميًّا؟ (ب) الأصول التي اعتمد عليها كيورتن (ج) منهج كيورتن في تخريج الكتاب نظريًّا (د) تلخيص نظرية كيورتن (هـ) مخالفة كيورتن عمليًّا لكل ما رسمه لنفسه نظريًّا من: (١) فحص الأصول جميعاً (٢) تخريج نص خاص يوافق عليه المؤلف (٣) نقل القراآت المختلفة بكل أمانة (٤) التصحيحات والملاحظات الخاصة. (و) إحساس كيورتن

بضمه ومحاولته الإعتذار (ز) كيورتن يتضح نفسه بنفسه (ح) رفضنا لطبعة كيورتن مشكوراً .

(٢) منهاجي العملي في تخريج الكتاب : (ا) وصل القارىء بقواعد التخريج السابقة (ب) سبيلي العمليـة : (١) نسخ الكتاب بخطي مراراً (٢) البحث والتنقيب في المكتبات العامة والخاصة (٣) جمع الأصول (٤) اصطفاء المتن وتصفيته (٥) إعراض عن لغو النساخ بعد عميق البحث (٦) أمثلة لهذا اللغو الذي أعرضت عنه (ج) ثم تقسيم الكتاب (د) ثم التاريخ لعصر المؤلف (هـ) ثم التاريخ للمؤلف .

(٣) الاستعانة بذوي الخبرة والمتخصصين (ا) مراجعة فضيلة الشيخ عيسى منون (ب) مراجعة الدكتور أحمد زكي بك (ج) مراجعة الأب يوصف الخضم اليسوعي (د) مراجعة الأستاذ عبد العزيز إسحاق (هـ) مراجعة الأستاذ عبد العزيز عبد الحق (و) جولاتي في الكتاب ، (ز) تقديم الكتاب إلى الناس جميعاً .

(٤) الأصول التي اعتمدنا عليها في تخريج الكتاب : (ا) الترجمات (ب) المخطوطات التي بلغت إثنتي عشرة مجموعة وهي : (١) ص : مطبوعات مصر على الهامش (٢) خ : مطبوعات مصر مجردة ـ (٣) ل : مطبوعات أوروبا (لندن وليبزج) ـ (٤) س مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ١٩٧٧ (٥) ي مخطوطة بدار الكتب أيضاً رقم ٦٩٤ (٦) لك : مخطوطة ثالثة بدار الكتب رقم ١٣١٠ (٧) سر : مخطوطة محمود بك السبع (٨) ست : مخطوطة ثانية له وأخرى بالمكتبة الأزهرية رقم ١٤٧٣ توحيد (٩) سع : مخطوطة ثالثة ملكه أيضاً (١٠) ب ـ : مخطوطتنا (بدران) ١١ (ا) : مخطوطة بالمكتبة الأزهرية رقم ٤٣١ توحيد (١٢) وثالثة بها رقم ٤٧٤ أباظة .

٤ — تقسيم كتاب الملل والنحل للشهرستاني

(١) هل قسم الشهرستاني كتابه : ا — يصمم الشهرستاني على كونه رباعيًّا أيضاً ب — قوله إنه قسم كتابه على مناهج الحساب (المقدمة الخامسة) . ج — الحق إنه لم يقسمه ، أو لم يصل إلينا تقسيمه د — مراتب الحساب والاختلاف في الواحد والعدد .

(٢) المقدمة الخامسة وكبار المتخصصين : ا — عجزي عن فهم تقسيم الكتاب من

هذه المقدمة . ب — عجز هارپر كراتماي عن فهمها وإدخاله إياها . ج — عجز كيورتن أيضاً عن فهمها . د — رأي الدكتور أحمد زكي بك فيها . ه — رأيي في إبراز هذه المقدمة .
و — هل هناك صلة بينها وبين الرياضيات الفيثاغورية .

(٣) هل قسم أحد الكتاب تقسيماً صحيحاً : ا — ما ذكر في صدر المخطوطة « س »
ب — تقسيم هارپر كر .

(٤) تقسيمنا للكتاب : ا — التوجه الى أبي الفتح والرجوع إليه دائماً . ب — إشاراته لي بالتقسيم (ج) تقسيمنا يوافق روح المؤلف ومراميه . د — تقسيمنا للكتاب جملة . (ه) تفصيل موجز لهذا التقسيم و — إجمال ما فصّلنا .

(٥) شكر وعرفان (وبعد) : ه ا) شكر الدكتور ماكدونلد (ب) شكر الأستاذ كونس (ج) شكر الأستاذ ماسينيون

***

القسم الثاني — الشهرستاني وكتابه الملل والنحل

١ — عصر الشهرستاني

(١) وجوب دراسة العصر .

(٢) التحديد الزمني لعصر الشهرستاني .

(٣) مصادرنا عن عصر الشهرستاني : — ا — المجموعة الأولى : المصادر المعاصرة له .
ب — المجموعة الثانية : المصادر المتوسطة . ج — المجموعة الثالثة : المصادر المدينة .

(٤) الرقعة الاسلامية في عصره .

(٥) الحال السياسية في عصر صاحبنا . ا — في العراق . ب — وفي خراسان أيضاً
ج — وفي مصر د — وفي المغرب . ه — ثم الفرنج . و — والباطنية .

(٦) الحال الاجتماعية وتشمل فيما تشمل : ا — الحياة العقلية . ب — الحياة العلمية .
ج — الحياة الدينية . و — الحياة الأخلاقية . ه — الحياة الاقتصادية .

(٧) وبعد : إجمال حال العصر وما يتطلبه .

٢ — الشهرستاني

(١) مصادرنا عن الشهرستاني : ا — المجموعة الأولى : المصادر المعاصرة له . ب — المجموعة الثانية : المصادر المتوسطة . ج — المجموعة الثالثة : المصادر الحديثة . د — دراسته من شيوخه . هـ — دراسته في كتابه الملل والنحل .

(٢) نسبة الشهرستاني .

(٣) مولده ووفاته : ا — الاختلاف في مولده . ب — الاختلاف في وفاته . ج — تحقيقنا تاريخ مولده . د — تحقيقنا تاريخ وفاته .

(٤) اسمه وكنيته .

(٥) مذهبه وشيوخه : ا — أحمد بن محمد بن عبد الله . ب — أبو القاسم الانصاري . ج — أبو الحسن المدائني . د — أبو نصر القشيري . هـ — أشعرية صاحبنا وشافعيته .

(٦) ألقابه العلمية .

(٧) اشتهاره بالفلسفة في زمنه .

(٨) اتهامه بالميل إلى الباطنية والغلو في التشيع . ا — تحقيق ابن السبكي . ب — تحقيقنا .

(٩) رأي أعلام العصر الحديث فيه : ا — رأي هارپركر الألماني ب — رأي كرادي فو الفرنسي . ج — رأي ألفرد جيوم الانجليزي . د — رأي مصطفى عبد الرازق المصري .

(١٠) آثاره العلمية : ا — وهو رياضي أيضاً . ب — وهو محدث : ج — وهو مفسر . د — جملة آثاره العلمية .

(١١) رحلاته : ا — بين خوارزم وخراسان . ب — بين مكة وبغداد . ج — رجوعه إلى خوارزم وخراسان . د — عالمه . هـ — تقريرنا .

(١٢) لغاته : ا — اللغة العربية . ب — اللغة الفارسية . ج — اللغة اليونانية : رأي هارپركر ، رأينا . د — خلاصة رأينا في لغاته .

(١٣) وعظه وتصوفه : ا — وعظه . ب — وتصوفه . ج — حكمنا .

(١٤) اتصاله بالحكام : ا ب اتصاله بالوزير نصير الدين . ب — اتصاله بالسلطان

الأعظم منجم . جـ ـ هل أثر ذلك عليه ؟

(١٥) كتبه : (ا) كتبه التي وصلت الينا . (ا) الملل والنحل (٢) نهاية الاقدام في علم الكلام

(ب) كتبه التي لم تصل الينا بعد (١) الارشاد الى عقائد العباد (٢) الاقطار في الأصول .

(٣) تاريخ المذكور (١) تلخيص الأقسام لمذاهب الأنام (٥) دقائق الأوهام (٦) شرح سورة يوسف . (٧) العيون والأسرار (٨) غاية المرام في علم الكلام (٩) قصة موسى والخضر (١٠) المبدأ والمعاد (١١) مجالس مكتوبة (١٢) مصارعة الفلاسفة (١٣) مفاتيح الأسرار ومصابيح الأبرار (١٤) المناهج والآيات (١٥) شبهات أرسطاليس وبرقلي وابن سينا ونقضها (١٦) نهاية الأوهام

(١٦) نهاية الأوهام (١٦) وبعد : رأينا في أبي الفتح

٣ ـ كتاب الملل والنحل للشهرستاني

(١) تقديم الكتاب : (ا) تقديم هاربركر (ب) ذيوع صيته والثناء عليه . (ج) تقديم الشهرستاني نفسه .

(٢) زمن تأليف الكتاب : (ا) تحديده بوزارة نصير الدين . (ب) تحديده من نص الكتاب . (ج) تقريرنا .

(٣) إجمال محتوياته : (ا) مشتملات الكتاب جملة . (ب) مقدمات الكتاب الخمس : الأولى . الثانية . الثالثة الرابعة . الخامسة (جـ) تمهيد عام للقسم الأول . (د) المصنفون . (ه) أهل الكتاب (و) من له شبهة كتاب . (ز) تمهيد عام للقسم الثاني . (ح) الصابئة (ط) الفلاسفة . (ي) . آراء العرب في الجاهلية . (يا) . آراء الهند . يب . الختام .

(٤) اهتمام المؤلف بالمقدمات والخواتيم . (ا) المقدمات (ب) والخواتيم أيضاً .

(٥) عنايته بالمصطلحات : (ا) مصطلحات القسم الأول . (ب) مصطلحات القسم الثاني .

(٦) أسلوبه : (ا) طعن كيورتن عليه . (ب) متابعة جيوم لكيورتن . (جـ) تحقيقنا من نص الكتاب (د) رأي هاربركر (ه) خلاصة تحقيقنا .

(٧) منهاجه : (ا) ضابط الاختلافات عنده . (ب) طريقته في ترتيب الفرق . (ج) شرطه على نفسه (طريقته في النقل) (د) تصريحه بالمخالفة : (أين خالف) (هـ) تأكيده أخيراً بأنه صار على منهاجه . (و) مناقشتنا لأبي الفتح في سيره على منهاجه . (ز) طريقته على حسب تحقيقنا . (ح) سعة اطلاعه تفوق شرطه (ط) مقارناته تخرجه عن منهاجه . (ي) سيره على منهاجه .

(٨) مصادره وكيف استخدمها : (ا) ما هي مصادره (ب) مصادره المباشرة (ج) مصادره غير المباشرة (د) وثوقه بمصادره وتحقيقه لها . (هـ) فهمه لها وتفهمه إياها .

(٩) حكمنا له أو عليه : (ا) حكمنا عليه : (١) إغفاله بعض المقالات (٢) اعتماده على خبر الافتراق (٣) اضطرابه في عد كبار الفرق (٤) فرضه أن الفروع ثلاث وسبعون بجهد (٥) بعض الألفاظ النابية في الكتاب (٦) تحامل هناته . (ب) حكمنا له : (١) موقفه من الشافعي والشافعية مذهبه في الفروع (٢) موقفه من الأشعري والأشعرية مذهبه في الأصول (٣) موقفه من النصارى (٤) موقفه من ابن سينا (الفلاسفة) (٥) اتفاقنا بحكم المتخصصين (٦) خلاصة الحكم .

(١٠) تقدير ودعاء .

* * *

ثم : المصادر جملة . (ا) المصادر الناطقة (ب) المصادر المكتوبة . (ج) أم الكتب .

وقد بسطنا الكلام على هذا كله في ٢٤٥ صفحة من القطع الكبير ضمها جميعاً مجلد واحد .

كتاب الملل والنحل : ولما كانت ترجمات الكتاب عن أصول عربية ، لم نرجع اليها الا للكشف والهداية ، ثم قسمنا أصول الكتاب المطبوعة والمخطوطة — التي استطعنا الوصول اليها — الى مجموعات بلغت اثنتا عشرة مجموعة كاملة ، ورمزنا لكل مجموعة برمز خاص يدل عليها ، فجاءت كما يلي :

١ ـ ص. مطبوعات مصر على هامش الفصل لابن حزم (اشارة الى طبع مصر)

٢ ـ ع : مطبوعات مصر مجردة (اشارة الى للطبعة العثمانية)

٣ ـ ل : مخطوطة : أوربا (إشارة الى لندن وليدرج)
٤ ـ س : مخطوطة بدار الكتب المصرية (إشارة الى زمن نسخها وهو القرن السابع الهجري)
٥ ـ ق : مخطوطة ثانية بدار الكتب أيضاً (اشارة الى منتصف القرن الثاني عشر الهجري) .
٦ ـ ك : مخطوطة ثالثة بدار الكتب كذلك (إشارة الى منتصف القرن الثالث عشر الهجري) .
٧ ـ سر : مخطوطة ملك محمود بك السبع المستشار بمصر (السين إشارة الى إسمه والراء الى القرن العاشر الهجري) .
٨ ـ صث : مخطوطتان : إحداها بمكتبة الأزهر ، والثانية للسبع بك (السين إشارة له والثاء للقرن الثالث عشر الهجري) .
٩ ـ صع : مخطوطة ثالثة ملكه كذلك (السين لاسمه والعين للقرن السابع)
١٠ ـ (ب) مخطوطة ملك مخرّج الكتاب محمد بن فتح الله بدران إشارة إلى إسمه بدران.
١١ ـ (ا) مخطوطة ثانية بمكتبة الأزهر إشارة الى أنها نقلت عن أقدم نص الكتاب .
١٢ ـ (ه) مخطوطة ثالثة بمكتبة الأزهر أيضاً (إشارة الى المكتبة الأزهرية) .

ولقد وصل إلينا هذا الكتاب — في مختلف طبعاته ومخطوطاته وترجماته — مخلخل البناء مهلهل الرداء . ويعلم من بيده مفاتيح السر وما يخفى . كم واصلت الليل بالنهار ، والنهار بالليل ، باحثاً مفتشاً ، منقباً . . . حول نص أرجّح ، أو علم أضبط ، أو اصطلاح أتكنّه ، أو معنى أتفهّم ، أو كلمة أنتقب . وكم واجهت نصوص الكتاب جيماً بعضها ببعض . جملة جملة ، وكلمة كلمة ، وحرفاً حرفاً . مستهلماً المؤلف نفسه ، متسنّماً جرمه وهمه ، مثبتاً في المتن ما يدعو إليه أو يطمئن له ، ذاكراً في الحواشي كل القراآت المختلفة ، المخالفة لما اخترت مما يؤدي الى معنى آخر ، أو مما قد يُفهم معه فهم ثان . أو مما قد يمكن أن يُقرأ قراءة أخرى . ليختار القارىء ما يشاء . . . إن هاء معرضاً عن غير ذلك ، من اختلافات تُستحيل الكتاب ، وتُثقل على القارىء ، عادًّا بلغو النساخ والمتعالمين مرّ الكرام ، بعد أن أقف على هذا اللغو طويلاً ، وبعد أن أقلب فيه أوجه النظر ، وأدير عليه وجوه البحث ، فلا أجد

فيه غناء ، ولا أعرف له وجهاً ، فلم أذكر في الحواشي : ما لا معنى له لعدم ثبوته ، وما لا يستقيم المعنى معه ، وما يقطع البحث التاريخي بخطئه ، مما ظن الشهرستاني أنهم يستدركون به متن المؤلف ، كما أثبتنا منها ما لا فائدة ترجى منه ، رغم قلة هذا ، فقد بلغت الفارقات التي دونتها في حواشي الكتاب ٦٢٧٥ مفارقة ، وقد تصل المفارقة الواحدة إلى ٢٤ سطراً .

وبهذا استطعنا أن نُخرِّج هذا الكتاب ـ لا نسخة منه ـ للناس جميعاً . نعم نستطيع أن نقدمه ـ دون أن ندخر وسعاً في التحقيق العلمي والأمانة العلمية ـ لخواص المثقفين ، إذ نقدم لهم كل نسخة نسخة ـ عثرنا عليها ـ من نسخ الكتاب مخطوطة أو مطبوعة ، وما على الباحث إلا أن يعرف رقم النسخة التي يريد الاطلاع عليها ، ويتابع ذلك في الحواشي مع قراءة المتن ، فيحصل بذلك على النسخة التي يريد ، وحسبنا أن نشبع رغبة هؤلاء الباحثين المتقين ، ونقدم إليهم عشرات النسخ في كتاب ، ونستطيع أن نقدم ذلك الكتاب نفسه — دون أن نفرض رأينا فرضاً — لجمهور المثقفين من القراء ، بعد أن بذلنا فيه طويل وقتنا الحفظ عليهم وقتهم ، هؤلاء إنما نقدم لهم المتن نقياً خالصاً . . . وحسبنا أن نتعب ونتعب ونتعب ، لنريح هؤلاء وهؤلاء .

* * *

وفوق هذا ، فإنا انفردنا بابتكار عناوين مفصلة للكتاب كله بلغت ٢٨٣٠ عنواناً ، نثرناها على الهامش الأيمن للكتاب ، وجمعناها في الفهرس الثاني من فهارسه .

كما أثبتنا على الهامش الأيسر أرقاماً تدل على عدد السطور لتكون همزة الوصل بين القارىء والفهارس والكتاب .

بعد أن بذلنا غاية الجهد حتى تفرّدنا بتقسيم الكتاب وتجزيئه وتبويبه وتفصيله ، بما يوافق روح المؤلف ، ويوفّق بينه وبين العصر الحديث ، وقد نثرنا كل هذا في كل الكتاب وجمعناه في الفهرس الأول من فهارسه .

وقد استغرق متن الكتاب مجلدين : مجلد خاص بأرباب الديانات والملل ، وآخر خاص بأهل الأهواء والنحل ، واشتمل هذان المجلدان على ٨٦٦ صفحة من القطع الكبير .

فهارس كتاب الملل والنحل . ولما كانت فائدة الفهارس أن تقود القارىء في سهولة ودقة ويسر وسرعة إلى حيث يريد من الكتاب ، وهي بهذا تعتبر روح الكتاب ومفتاحه كان همنا الأول والأخير أن تكون فهارسنا هذي هي القائد الكريم للقارىء الكريم ، مهما كلفنا ذلك من جهد ومشقة . وقد أدينا بحمد الله وفق ما نرجو . وهل يستطيع باحث الآن أن ينتفع انتفاعاً كاملاً ودقيقاً بكتاب مّا إلاّ إذا قادته إلى حيث يريد منه فهارسه خصوصاً إذا كان الكتاب مترامي الأطراف متسع الآفاق ككتاب الملل والنحل ، لهذا وقفت عنايتي حيناً من الدهر لابتكار هاتيك الفهارس المتنوعة لذلك الكتاب ، وكلي أمل أن يستفيد منها الباحث فتفيده ، وأن تجذب القارىء إلى الكتاب فينجذب إليه .

* * *

وقد ابتدأت بالفهرس الاجمالي لمحتويات الكتاب وانتزعته من التقسيم الذي تقيدت به ، وعانيت فيه ما عانيت ... حتى جاء الكتاب في قسمين في سبعة أجزاء في خمسة وعشرين باباً في ١٣٣ فصلاً ،

القسم الأول يشمل ثلاثة أجزاء : المسلمون — أهل الكتاب — من له شبه كتاب ، وهم أرباب الديانات والملل .

والقسم الثاني يشمل أربعة أجزاء : الصابئة ـ الفلاسفة ـ العرب ـ الهند ، وهم أهل الأهواء والنحل .

وثنيت بالفهرس التفصيلي لمحتويات الكتاب ، وانتزعته من العناوين الجانبية التي ابتكرتها ، ونثرتها على الهامش الأيمن للكتاب والتي بلغت ٢٨٣٠ عنواناً .

وثلثت بفهرس الترجمة الألمانية لماربرگر — وقد ناقشته في كتابنا المدخل — وجعلته كملحق للفهرس الأول المنتزع من تقسيمنا للكتاب ، للمقارنة بينهما من ناحية ، ولاستكمال المنهج العلمي من ناحية أخرى .

وربّعت بفهرس المخطوطة « س » كملحق للفهرس الثاني ابتكارنا ، للمقارنة بينهما من ناحية ، ولاستكمال المنهج العلمي من ناحية ثانية ، وللمحافظة على الأمانة العلمية من ناحية ثالثة

ثم خمّست بفهرس البلاد والأماكن التي انتزعتها من نجاد الكتاب ووهاده ، بعد أن

وتبتها ترتيباً هجائياً على حسب النطق بها وكتابتها ، مثبتاً أمام البلد أو المكان رقم الصفحة فالسطر الوارد فيه .

ثم سدّمت بفهرس الفرق والقبائل المذكورة في مطاوي الكتاب وثنياته ، ذاكراً أمام كل فرقة أو قبيلة أرقام الصفحات التي خصصت لها بعد علامة = من ... إلى ... ثم مثبتاً رقم الصفحة فالسطر الواردة فيهما الفرقة أو القبيلة في غيرها خصص ما .. وقد رتبتها على حروف الهجاء .

* * *

وأخيراً — وليس آخراً إن شاء الله — ختمت هاتيك الفهارس — الآن — بفهرس الاعلام للأفراد ، مرتباً كسابقيه على حسب النطق والكتابة وأحرف الهجاء ، ذاكراً الصفحة فالسطر الوارد فيهما ذلك العلم أولاً ثم مثبتاً أمام ذلك ما انفرد به هذا العلم من رأي أو ما سيق هذا العلم من أجله إن كان في ذلك غناء أو نفع علمي . وقد شملت هذه الفهارس جميعاً ١٨٤ صفحة من القطع الكبير .

وبعد : فانه لمن حسن حظ هذا النوع الجديد من البحث — الذي نهيب بالمخلصين والمتصوفين من العلماء والباحثين وبخاصة طالبي الإجازات العلمية أن يسلكوا سبيله — أن يخرج من الأزهر ، وفي الأزهر ، وللأزهر ، ليشعّه على العالم كله ، وقد استوى على الأزهر الآن في عالم عالميّ ، نرجو أن يدفع بسرعة وتوفر الأزهر ورجاله وأبنائه بكلتا يديه — كما يقول — ذلكم هو فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق قواه الله وأعانه .

* * *

والله نسأل : أن يجعل عملنا خالصاً لوجهه ، وأن يهدينا الصراط المستقيم ، وأن يوفقنا لخدمة العلم والدين

محمد بن فتح الله بدران

الرياضيات

في العلوم الطبيعية

الكون عالم طبيعي (فسوزيقي) فلماذا نرى عنصر الرياضة قد أصبح حقيقة لا غنى عنها في علم الطبيعة ؟

هذا سؤال ألقاه السير جيمز جينز ، ولكنه أجاب على سؤاله بقوله : « لأن خالق الكون رياضي بحت » . لكن السير ارثر ادنجتن أراد أن يخفف من وطأة الجواب فقال : « إننا نحن الذين وضعنا عنصر الرياضة في الطبيعة » . ولست أدري هل جرّد الخالق من صفة الرياضة ، أم جرد الكون من تكوينه الهندسي ، عند هذا قامت الأستاذة سوزانا ستبنج [1] وهاجمت العالمين بشدة وأنكرت قولهما وأرادت أن يكون الجواب على هذا السؤال ما يلي : « لقد خلق الله الكون في صورة رياضية » .

وعلى كل حال فقد اتفق العالم والفيلسوف على أن الرياضيات أساس في طبيعة الكون وخلقه ، وإنه يتعذر علينا تحليل ظواهر الطبيعة وتفسيرها دون الالتجاء الى الرياضيات .

ولقد اتفق العالم والفيلسوف — كما قلت — في فهم هذا الكون وتركيبه ولكنهما اختلفا في صيغة التعريف ، فالعالم يعتمد على التجربة وعلى الحساب الدقيق عند القياسات أثناء التجربة ، فعنده ، أن الظواهر الطبيعية لا تفسر إلاّ بالتجربة والقياس . أما الفيلسوف فيعتمد على العقل المجرد فيعلل ظواهر الطبيعة على أساس المنطق ، وكثيراً ما يخطىء المنطق في هذه التعليلات ، ولعله يخطىء دائماً في هذه الناحية لأن القوانين المنطقية لا تساعدنا في فهم العالم التجريبي ، فجميع معارفنا عن الحقيقة تأتينا عن طريق التجربة ، فالمنطق لا سبيل له في تعليل الظواهر الطبيعية دون التجربة . وفي هذا الصدد يقول إنشتين « إن أقوال المنطقيين البحت كلها فارغة بالنسبة للحقيقة » .

ولما كانت التجربة تعتمد على القياس إذن فعنصر الرياضة حقيقة لازمة في تفهم أسرار الكون وتعليل ظواهره . لنأخذ مثلاً بسيطاً : نلاحظ عند مرور تيار كهربي في أنبوب يحتوي على غاز مخفف منظراً جميلاً . فالظاهرة تبين ما يحدث عند مرور التيار الكهربي في

---

(١) أستاذة المنطق في جامعة لندن ، توفيت عام ١٩٤٣ .

الأنبوب وتنقطع بقطعه ، مثله ظاهرة [illegible] المتصرد [illegible] مقدار كثافة الهار ونوعه وان اللون المرئي هو خاص لتلك النوع من الغاز [illegible] مقدار قوة التيار وجريانه . . . الخ . هذه الاستنتاجات [illegible] كل ما يقال في تعليل هذه الظاهرة قبل خمسين سنة ولكننا اليوم لا نكتفي بمثل هذه الأجوبة بل نسأل عن أسباب أخرى فندخل حدود العلم النظري فنتطرق الى التركيب الذري والجزيئي للمحلات الكهربية التي تحملها الجسيمات عند خروجها في السلك الكهربائي ، وتصادمها مع ذرات الغاز وتفاعلها معها تفاعلاً آليًّا ، عندئذٍ نعمل بعد جهد الى تعليل الظاهرة وبكلمة فالتجربة التي كانت قبلاً بسيطة قد أصبحت معقدة تحوجنا على أن نشارك عقولاً جديدة في العلوم تحتاج في تفسيرها الى معرفة العلوم الذرية والرياضيات العالية .

على هذه الطريقة تقدم العلم الفوزيقي وبواسطة الرياضيات حقق سيادته على غيره من العلوم فنشأ من تقدم الرياضة وملازمتها له نوعان من العلوم الفوزيقية ، العلم التجريبي الذي يعتمد على التجربة والحسابات ، والعلم النظري الذي يعتمد على إمكان الرياضة في الوصول الى النتائج الفوزيقية بغير التجربة اليدوية . فنيوتن الذي يعد أبو الفوزيقا النظرية كان يعتقد أنه من الممكن استخلاص جميع الأسس والقوانين التي وضعها عن طريق التجربة وهذا ما كان يعني بقوله المأثور hypotheses non fingo

علمنا أن التجربة تحتاج الى القياسات أو قل هي القياسات بعينها ، إذن ينطابق هذا القول تعريف هايزنبرغ للعلوم الفوزيقية حيث يقول « الفوزيقا هي علم القياسات » .

وعند ما كان يعتقد نيوتن إنه من الممكن الحصول على جميع أسس وقوانين الطبيعة عن طريق التجربة هكذا كان يعتقد مكسول عند ما أراد أن يحصل على جميع نتائج (فراداي) في علمي المغنطيس والكهرباء عن طريق الحلول الرياضية وهكذا كان ، فقد نجح في الوصول الى تلك النتائج بواسطة الرياضيات وقد زاد عليها قوانينه المشهورة وبحوثه التي من جرائها سهلت اكتشافات عديدة كاللاسلكي والراديو والرادار وغيرها .

برز في حقول الرياضيات الطبيعية علماء أفذاذ قدموا العلم خطىً واسعة ورقوا به الى أسمى الدرجات فأصبح سلم السعادة ، وآلة الفتك والدمار . كان لبلانك وذي برولي وهايزنبرغ وشرودنجر وديراك وبور وغيرهم أثر بعيد في تقدم علم الطبيعيات الحديثة أخصها الفوزيقا الذرية . وكان لفتزجرالد ولورنتز ومكوفسكي وانشتين في تقدم النسبية .

الفئة الأولى كان جل اهتمامها بالناحية الرياضية في الحقول الذرية فتقدم هذا الفرع خطوطاً بعيداً ووصلوا الى الشاطىء المجهول قبل أن يصل اليه علماء التجربة . فبهم تقدم علم

الميكانيكا النسبية Quantum Mechanics وعندما توصل علماء التجربة الى وجود دقائق عديدة في عالم الذرة كالنيوترون والميزون والبوزترون التي مهدت الطريق الى استخراج الطاقة الذرية الكامنة، تقدم هؤلاء النظريون بواسطة علومهم الرياضية في علوم الميكانيكا الجزيئية Matrix Mechanics وتبعتها الميكانيكا الموجية Wave Mechanics فلهذه الأخيرة كانت اليد الطولى في تعيين خصائص الذرة وتركيبها وتفاعلها والتي مهدت السبيل الى اكتشاف القنبلة الذرية، تلك القنبلة التي أهلكت ودمرت وفرضت السلام على العالم فرضاً [١]

فالخطى التي أحرزها العلم الفيزيقي بواسطة الرياضيات يعد من عجائب هذا العصر فقوانين نيوتن في الميكانيكا لم تعد تصح على دقائق الذرة فاقتصر فعلها على الكتل الكبيرة والقذائف المرئية. وأما الفئة الثانية فقد جاءتنا بأبحاث في تنظيم الكون وتفسير مسالك الأجرام وانظار اهر الكونية. فبحثوا في الزمان والمكان وصحتهما المطلقة، وارتقوا بنا الى أعالي الثريا لنعرف مدى الكون، أهو امتداد لا نهائي، أم هو كون مكور محدود، فقدموا لنا تقريراً وافياً عن هندسة الكون وشكله أرجعتنا إلى بداية هذا الحديث، وأعادتنا أن خالق الكون رياضي مبدع، أو قل إن هذا الكون قد خلق على نظام هندسي مدهش. فكانت النسبية الخاصة تقول: ان القوانين الطبيعية العامة ليست متباينة بالنسبة لمعادلات لورنتز.

وكانت النسبية العامة تقول: ان تساوي جميع نظم الاحداثيات الجوسية [٢] أساس في تكوين القوانين الطبيعية العامة [٣]. بهذه اللغة تفسر الكون، هذه اللغة الرياضية التي جعلت الإنسان يؤمن بالعقل ومبتكراته، وحيث يقف أمام هيكل هذه الآلة قائلاً:

أيتها الرياضيات يامن لك الفضل الأكبر في تنمية العلوم وتوسيع مدارك الإنسان لك تدين المكتشفات، وبك عرف الخافي المجهول، أنت القابضة على أحداث الموسيقى واهتزازاتها، بك تقدمت الفيزيقا وإليك ترجع الكيمياء، بقدرتك حمل الإنسان الكون على كفه، بقلمه ليستقصي مسالكه ويعرف مادته.

لا مجال للاستغراب في هذا الحديث، فالرياضة إحدى الطرق التي بها ننظر الى الأشياء والذي لا يعرفها فهو خاسر، وخسرانه كبير في فهم العلوم وأسرار الكون، ولو أنه لا يشعر بهذه الخسارة مثله كمثل المصاب بعمى الالوان الذي لا يقوى على رؤيته [٤]

فؤاد جميعان

---

(١) مجلة الذرة عدد سبتمبر سنة ١٩٤٦ (٢) نسبة الى الرياضي الشهير جوس Gauss (٣) تلخيص اشتين

(٤) Mc Kay, The World of Number

الأثر الديني
في الفن القبطي

من الأمور المتفق عليها حتى العصر الحاضر بين علماء الآثار والمؤرخين أن الفن القبطي إنما هو فن ديني مسيحي محض يعبر عن فن الأديرة والكنائس، مؤثراته دينية كما أن أغراضه دينية أيضاً، بمعنى أنه لم يتأثر بمؤثرات دنيوية وإنه لم يرم الى أغراض دنيوية (مدنية).

ويبدأ هذا الفن القبطي أو الفن البيزنطي في نظر هؤلاء العلماء منذ سنة ٣٩٥ ميلادية وقت أن أصبحت الديانة المسيحية ديناً رسمياً لمصر، ويستمر حتى سنة ٦٤٠ ميلادية، وهو وقت دخول العرب مصر.

ولكن إذا رجعنا إلى أصل كلمة قبطي وجدنا أنها في معناها ترادف كلمة مصري سواء بسواء، بمعنى أن جميع سكان وادي النيل كان يطلق عليهم قبل غزو الاسكندر الأكبر لمصر بمدة طويلة اللفظ اليوناني « ايجبتيوس » الذي حُرِّف بعد ذلك الى لفظ قبطي.

وهذا يقطع بأن كلمة قبطي لا علاقة لها إطلاقاً بالنزعة الدينية، بل كان لفظها يستعمل قبل دخول المسيحية مصر وفي عهد المسيحية وبعدها.

نخرج من هذا بنتيجة هامة وهي أن الفن القبطي كان فناً مصرياً قبل أن يكون فناً دينياً كما هو الرأي الشائع حتى الآن.

وبمجرد إعادة النظر في الآثار القبطية الموجودة بالمتحف القبطي، وفي باقي المتاحف المصرية، وكذلك في مختلف متاحف أوروبا وأمريكا، وفي الأسباب التي استند عليها العلماء في رأيهم السابق، وفي ما قام به العلماء من حفريات — يدلنا على إنهم مخطئون فيما يذهبون إليه، فقد خضع الفن القبطي كغيره من سائر الفنون لمؤثرات البيئة التي نشأ فيها وهذه المؤثرات منها ما هو ديني ومنها ما هو دنيوي، وهو ترجمان صادق للحياة المصرية في تلك الفترة من الزمن وما قبلها وما بعدها.

فمثلاً نجد في كثير من المقابر والمباني المدنية آثاراً بديعة الى الدين المسيحي والمتدينين به ، فالمتحف القبطي زاخر بصور المرأة وبأدوات الزينة من مكاحل وأمشاط وحلى السيدات ، من ذلك الخلاخيل والأساور المحلاة برأس الثعبان (وهي العادة الفرعونية القديمة والمنتشرة حتى الآن) وما الى الخلاخيل من العقود والخواتم التي على شكل زهرة اللوتس أو المحلاة بعلامة إيب الفرعونية (أي القلب) والحلقان الذهبية التي على شكل عنقود العنب ، والثياب المدنية المزركشة والمزخرفة بزخرفة فرعونية كالجعل المجنح أو علامة عنخ الفرعونية (أي الحياة) وهي بلا شك من آثار الحضارة المصرية الفرعونية .

كذلك ترك لنا الفن القبطي آثاراً منزلية كثيرة عليها بعض مناظر لأشخاص عراة أو لراقصين أو راقصات ، كما أن بعضها يشبه ما وجد في مقابر الفراعنة كالأواني الفخارية ، أو بعض الأواني المعدنية ، كالإناء الذي يشابه العلامة الفرعونية (حمص) أي ممدوح ، أو الملعقة المعدنية التي لها يد من حديد وتنتهي بشوكة وتشبه في شكلها تلك التي وجدت أخيراً في حفائر حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق المعظم بجهة حلوان وهي مصنوعة من العاج ويرجع تاريخها إلى أوائل عصر وحدة مصر الأولى تحت عرش ملك واحد .

كما أن البعض الآخر من الآثار القبطية عليه مناظر نيل عصره من طيور وأسماك أو نبات البردي ، أو التمساح أو المراكب والنيل بلا شك قوام حياة مصر في كل عصورها ، ولا علاقة لكل هذا بالدين المسيحي لا من قريب أو بعيد .

كما أن هناك آثاراً عديدة من العصر القبطي لمصريين لم تكن المسيحية ديانتهم . وقد استوحى هذا الفريق من المصريين الذين لم يكونوا قد اعتنقوا المسيحية بعد في فنهم مؤثرات غير مسيحية ، وهذا يدل على ان الفن القبطي كان فناً مشتركاً بين المسيحيين وغير المسيحيين من المصريين .

زد على ذلك أن على كثير من المباني رسوماً حيوانية كصيد الأسد أو الغزال أو الطيور أو مناظر لبعض نباتات مصر كالنخيل واللوتس والبردي والرمان . وان أصل الكثير من هذه الرسوم يرجع إلى مصر الفرعونية ، ويبين استمرار وحدة الفن المصري في عصوره المختلفة .

وفوق هذا عثر المنقبون على آثار قبطية هي عبارة عن أدوات زراعية كالفأس والشرشرة — ومصر بلاد زراعية — أو أدوات منزلية ، كالمرود والكيزان والمقبض ، أو أدوات الكيل ، والوزن ، أو أدوات الكتابة ، أو أدوات الطهي ، أو أدوات النسيج ، والكثير منها يرجع في أصله إلى مصر الفرعونية .

ولا داعي للقول بأن كل هذه الأشياء لا تمت الى الدين المسيحي بأي صلة مما يؤيد الرأي الذي نقول به ، وهو أن الفن القبطي تأثر بمؤثرات دنيوية (مدنية) فوق تأثره بالمؤثرات الدينية المعروفة ، فالفن في كل عصر وفي كل بلد إنما هو ترجمان الحياة في شتى نواحيها .

ويرجع كثير من الرسوم الجمية التي كانت تزين بها بعض المباني القبطية في أصلها الى نقوش فرعونية ، أو زينة فرعونية ، بل انها كانت تصنع بنفس الطريقة الفرعونية . وكذلك كان التصوير بالألوان على لوحات المومياء يرجع الى تطور العادات المصرية الفرعونية .

وهناك كثير من الرسوم التي وجدها العلماء مرسومة على قطع من الفخار تعبر في مرماها عن أشياء لا تمت للدين بصلة ما رغم أنها رسمت بعد أن أصبحت المسيحية ديناً رسمياً للدولة الامبراطورية الرومانية التي كانت مصر في القرن الرابع للميلادي إحدى أقاليمها .

ومما يقطع بصحة رأينا تلك الرسوم الكثيرة التي وجدها العلماء على جدران بعض الكنائس والأديرة التي لا علاقة لها بالدين اطلاقاً ، وإنما هي ترمز إلى صور من الحياة المادية ، فمثلاً : ما علاقة عصفور يأكل عنباً (صورة رقم ٦) أو صور أشجار وفواكه وأزهار أو صور هندسية بالدين ؟

بل من الطريف أن القبطي لم تفته روح الدعابة والمرح التي ورثها عن أجداده قدماء المصريين ، إذ ضمن رسومه حكماً وأمثالاً كانت متداولة في مصر الفرعونية ولا زال بعضها مضرب الأمثال حتى وقتنا الحاضر . مثال ذلك لعبة القط والفار المرسومة على جدران أحد مباني بأويط

واذا ذهبنا مع هؤلاء العلماء مذهباً بعيداً لوجب القول بأن الفن القبطي (الفن البيزنطي

في نظرهم) وجد معاصراً لعصر المسيحي بمعنى انه لم يوجد قبل هذا العصر ما يسمى فنًّا قبطيًّا .

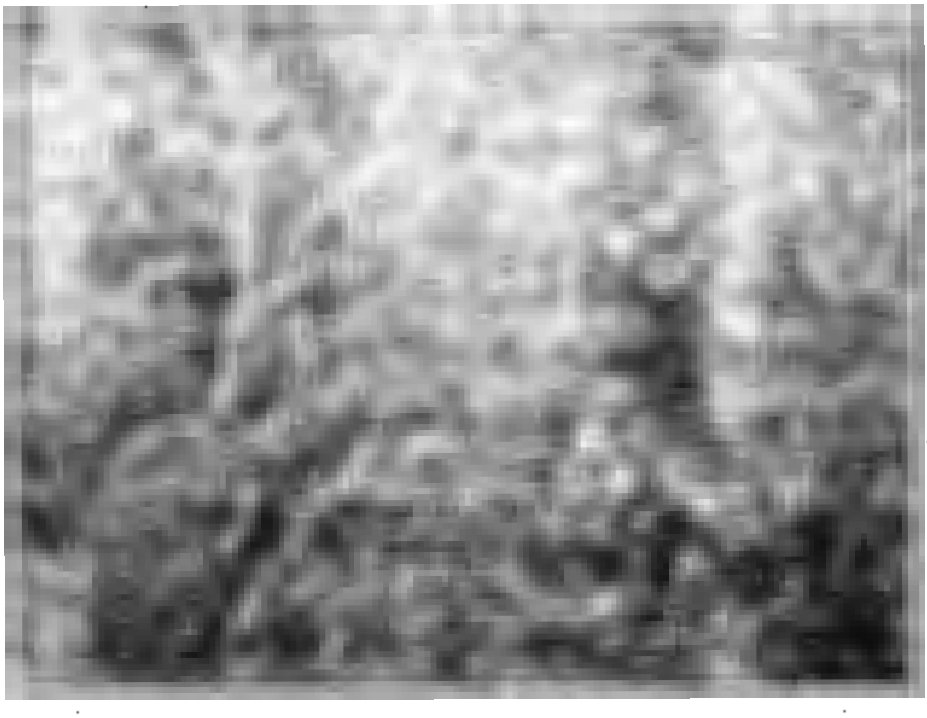

صورة رقم ٦ (تصوير المتحف القبطي)

ولكن اذا عرفنا أن الفنون التي نمت وازدهرت في أنحاء مصر أثناء الحكم اليوناني الروماني ، أثرت في الفن اليوناني الروماني نفسه ، وقد قلد اليونان والرومان في عمائرهم الكثير من أساليب العمارة الفرعونية وزخرفها ، وجب أن نخرج بنتيجة وهي أن الفن القبطي وجد قبل ظهور المسيحية بزمن طويل فاستطيع تحديده نوعاً بدخول الاسكندر الأكبر مصر حوالي سنة ٣٣٢ قبل الميلاد ، حتى لا نخلط بين الفن القبطي المصري ، والفن القبطي الفرعوني كما يجب أن نسميهما .

فقد ثبت انه كان للمصريين في العصر السابق للمسيحية فن مجيد ونهضة فنية رائعة رنَّ صداها في كافة الأرجاء، وتأثرت بها سائر البلدان المجاورة .

ولا يمكننا بحال من الأحوال أن نوافق على رأي العلماء من أن الفن الذي ظهر في مصر في هذا العصر كان فنًّا يونانيًّا رومانيًّا خلب ، أو نوافق على رأي الفريق الآخر

من أن الفن الهيلنستي وهو المنبع من اليوناني المتأخر ، وفن بعض الشعوب الشرقية كفارس وسوريا وبابل هو الذي سادفي هذا العصر في مصر

والآن وقد سقنا هذه الأمثلة العديدة والأدلة التي بيناها نستطيع أن نؤكد أن الفن القبطي ليس كما يقول العلماء فنًّا دينيًّا مسيحيًّا محضًا ، وانما هو فنٌّ مصريٌّ له مؤثراته وأغراضه الدنيوية ، كما أن له أغراضًا ومؤثرات دينية .

سيد الأسد (تصوير المتحف القبطي)

ومما يعزز قولنا هو تفرع اللغة القبطية الى لهجات منها : اللهجة البحيرية ، والصعيدية ، والأخميمية ، والصيومية ، التي تدل دلالة واضحة على التطور الاقليمي للغة المصرية القديمة .

ولم تؤثر اللغة اليونانية على القبطية الا من حيث بعض حروف الهجاء وبعض المفردات الدخيلة .

دكتور باكور بيب
الامين بالمتحف القبطي

الاستحمام

وفوائده الصحية والطبية

يراد بالاستحمام تمريض كل الجسد للماء والرياضة العضلية وليس دخول الحمام للإغتسال بالماء الحار فقط بقصد النظافة ، والغرض منه كما لا يخفى إزالة الافرازات الجلدية كالعرق والمواد الدهنية التي تمتزج بالغبار وتلتصق بالجلد . فاذا لم تُزَل تلك الافرازات رسخت حينئذ بالجلد وكوّنت قشوراً تمنع تنفس الجلد وإفراز العرق ، وهذا ما يؤدي الى أمراض خطيرة. وقد يموت الانسان إذا حُجز عنه التنفس الجلدي مثلما يموت إذا حُجز عنه الهواء .

فلا بدّ للانسان إذاً من غسل جسمه دائماً مهما كان سنه ومنزلته ، غنيّاً كان أم فقيراً ، سليماً أم عليلاً ، طفلاً أم شيخاً . كيف لا وهو واسطة النظافة والصحة الجيدة ، وعامل حيوي لدرء كثير من العلل والأمراض التي تأتي عن طريق الجلد بما يلصق على سطحه كما قلنا من الأوساخ والأدران والأملاح والقشور التي يفرزها العرق والغدد الدهنية . وبالرغم من وجود المنشآت الكثيرة المخصصة للاستحمام في أيامنا هذه لا تزال بعيدين جداً عن اهتمام الشعوب القديمة من حيث النظافة ومضاهاتنا لها من هذه الناحية .

فالحمامات عند اليونان والرومان كما يؤكد بعض المؤرخين كانت لا تماثل حسناً وكبراً ، وقد بلغت درجة من الأهمية بحيث أفسحوا للناس مجالاً واسعاً لارتيادها سواء أكانوا من العامة أم الخاصة . فكانوا يقدّرون إذ ذاك قوة الجسم وجماله ورهافته ويعملون على المحافظة عليه ، ولا تزال ماثلة الى اليوم في أوروبا بقايا تلك الأماكن الجميلة المخصصة للاستحمام . ففي روما مثلاً كان يوجد لدى جميع الأشراف والأغنياء ، حتى الطبقة المتوسطة من الشعب ، حمّامات خاصة في بيوتهم — هذا عدا الحمامات العمومية لطبقات الشعب . أما في أيامنا هذه فلا نرى ما يذكرنا بتلك التماثيل الكبيرة الرائعة التي لا تزال آثارها باقية في أراضي المملكة القديمة كتماثيل الحمامات العامة لأوغسطس ، ونيرون ، وكراكلا في رومة ، وتماثيل قيصر في باريس . وقد كان الاستحمام للأهالين مجاناً تقريباً أي بسنتيمين فقط ، ولا يخفى

ما توجد مثل هذه المنشآت وأما أن الاستحمام من المناهج الجوهرية للصحة العامة

فيمكن القول أن النظافة لم تبتدىء بالتقدم بعيداً بعد ذلك إلا في أيام الصليبيين خصوصاً عند الطبقة الميسورة وقد امتدّ ذوق استعمال الحمامات من الشرق الى فرنسا. ويمكني أن تعطوف الآن شوارع باريس القديمة وتشاهد معالمها ورسومها وتقرأ أسماء شوارعها كي تتأكد من وجود أماكن عديدة عامة للاستحمام في ذلك الزمن.

وقد كتب أحد المؤرخين الغربيين فصلاً ممتعاً عن عادات أهل البلاد وأخلاقهم في ذلك الزمن أي من القرن الثالث عشر حتى القرن التاسع عشر جاء فيه ما يلي: — «لكي يكون الاستحمام حاراً ويبدو وديعاً لطيفاً إذا دُعي أحدهم إلى تناول الطعام عند أسرة ما، فعلى أصحاب الدعوة أن يهيئوا للمدعو أولاً حمّاماً حاراً فور وصوله الى بيت هذه الأسرة، وبعد الانتهاء من الحمام يأتي الضيف توّاً الى غرفة الأكل لتناول الطعام».

ولعمري ليست النظافة وحدها ما يكسبه الجسم بالاستحمام، بل هنالك أيضاً إنعاش الجلد وتكيين أعصاب الجلد، والبهجة والنشاط والرشاقة وخفة الحركة والصحة وبالتالي طول الحياة. وإذا أمعنا الفكر قليلاً ألفينا أيضاً أنّ النظافة هي أساس الوقاية من الأمراض المعدية، ولنأخذ مثلاً على ذلك الحمّى التيفية التي تنتقل من المريض الى السليم بوساطة المواد البرازية. فاذا روعيت النظافة في هذه الحالة أمكننا التخلص من هذا المرض بدون أن نتعرض للتلوث به ونبقى سالمين منهُ. وهكذا قل عن الزحار والهيضة (الكوليرا) وغيرها.

زد على ذلك أنّ النظافة هي أساس الجمال. فالزينة والتبرج مهما بلغا حد الكمال والاتقان يبعثان في النفس النفور والاشمئزاز أكثر من الاعجاب والاطراء — إذا لم يكونا مقرونين أولاً بالنظافة ومراعاة الطهارة الجسدية، ومهما تكن المرأة جميلة مليحة فإن قذارة ملابسها أو انساخ جسمها يسلبها الملاحة والفتنة والجاذبية التي تنفردها. وهذا كله لا يتم إلا بالاستحمام.

وفي أيامنا هذه نرى أن أفخم الحمامات هي عند الأميركيين ويشبهون من هذه الناحية اليونان القدماء. أما اليابانيون الذين يُعدُّون أنظف أمم الأرض كما يؤكد الكثير من الباحثين، وأعظمهم إقبالاً على الاستحمام، فانهم يستعملون المرشّ (دوش) وليس الأحواض

(بانيو) كما يفعل الغربيون، وهم يسخرون من هؤلاء لأنهم يستحمون في ماء قد تلوث بأقذار الجسم ودنسه به الصابون، فالنظافة لا تتم تامة في هذه الحالة ما لم يُنظف الجسم بعد ذلك بالماء الساخن النظيف أو بالرش.

ومما يذكر في هذا الصدد أن الترويجيين قد اتخذوا عادة الاستحمام في العراء في فصل الشتاء، وغالباً ما يستعملون الجليد بدل الماء فيحك المستحم جسمه بقطع منه. صحيح أن هذا ينشط الدورة الدموية ويفيد الجلد فائدة كبرى، غير أن هذه الطريقة لا تأتي بالفائدة المبتغاة من جهة تنظيف الجسم وإزالة ما يكون قد علق به من الادران والأوساخ والأملاح وغيرها.

(فائدة الاستحمام للجسم): وتأثير الحمام على جسمنا له فوائد من نواح ثلاث. طبيعية، وأدبية، وعقلية.

١ — الحمام الساخن: (٣٤ — ٣٨ درجة مئوية): يفتح مسام الجلد فيجري منها العرق حاملاً معه السموم الكثيرة والأقذار المتروكة، كما أنه يرفع حرارة الجسم ويزيد النبض بحيث يبلغ ١٢٠ الى ١٣٠ درجة في الدقيقة الواحدة، ويستدعي الدم في الوقت نفسه الى نواحي الجسم السطحية فينعشها ويريح من عبء الأعضاء الداخلية، وعلى الخصوص المعدة والكليتين. وهذه الراحة التي تنالها الأعضاء الداخلية ضرورة لتجديد حيويتها وتقويتها على مثابرة أعمالها.

طبياً يمكننا استعمال الحمامات الساخنة في حالات الرئية، وفي أمراض المسالك التنفسية الحادة. ولا سيما عند الأولاد في الالتهاب الشعبي الرئوي (٣٨ درجة مئوية)، فيُترك الولد في الماء مدة عشر الى عشرين دقيقة، وتوضع كمادات ماء بارد على رأسه طيلة مدة الاستحمام منعاً لاحتقان الدماغ، وذات الحمامات الساخنة تستعمل أيضاً في حالات التهاب الكلى الحادة وفي تهدئة الأعصاب أيضاً.

غير أنه يجب الاحتراس بعد أخذ الحمام الساخن من التعرض لأضرار البرد والتيارات الهوائية لأن الجلد المتمدد الحار يصاب أحياناً بالنفحات الباردة فتعتري الانسان القشعريرة وهي تمهد السبيل الى بعض الأمراض بل قد تفضي أحياناً إلى الموت اذا لم يحسب لها حساباً.

ولاجتناب هذا الأذى يقتضي عند الانتهاء من الاستحمام ، التمدد في فراش مدة نصف ساعة تحت غطاء خفيف في غرفة محفوظة من مجاري الهواء ، وأنسب وقت لذلك هو في المساء قبل النوم . وينبغي على كل حال عدم الاستحمام بتاتاً قبل مرور ساعتين على تناول آخر وجبة من الطعام . ويجب على الذين بلغوا السن ٤٥ فما فوق اجتناب أخذ الحمامات الساخنة جداً (٣٨ — ٤١ درجة مئوية) لأنهم غالباً ما يكونون مشتبهين بأمراض غير ظاهرة ولا يُشعر بها من ناحية القلب والأوعية الدموية .

٢ — الحمام الفاتر : (٢٨ الى ٣٤ درجة مئوية) : هو من أفضل أنواع الحمامات ، لا سيما في الصباح ، لأنه ينظف جيداً ، وينعش ويحمي من البرد ومن التهاب الدعب وذات الرئة التي تفتك بالكثيرين سنوياً . وهو يفيد على الخصوص ذوي الأمزجة العصبية والأطفال العقلية والمصابين بأمراض القلب ، والمسلولين ، ونحاف الأجسام ، والنافهين من الأمراض وخصوصاً في الصيف حيث يلطف حرارة البدن ويزيل التعب والكسل الناجمين من الحر . كما أنه يفيد أيضاً في حالات الأرق العصبي والنوراستنيا (ضعف الأعصاب) والهستريا ، وفي الأوجاع الداخلية لالتهاب الأعصاب المتعدد المنتشر (Polynévrite) ، والسُّهام Tabes . زد إلى ذلك أنَّ استعمال الحمامات الفاترة أو الساخنة تساعد على تفريغ المثانة وتسهل أدخال القنطرة في الاحليل Cathétérisme في حالة تضيق القناة البولية ، هذا فضلاً عن فائدتها أيضاً في بعض الأمراض الجلدية كالحكاك وغيره .

ويرجح علم يكون الحمام الفاتر مفيداً لمَّا تكون قوى الجسد منحطة أو عندما يكون الشخص امرأة نحيفة أو ولداً ضعيف البنية أو حينما يكون الطقس بارداً جداً .

٣ — الحمام البارد (١٠ الى ٢٨ درجة مئوية) : تختلف درجة برودة الماء الذي يستحم به الانسان كما ترى بحسب حرارة الفصل أو برودته . وأما تأثيره الأول في الجسد فانه يعكس الدم والقوة الحيوية من الظاهر الى الباطن . ثم يردها الى الجلد والمجموع العضلي . وهذا ما يسمى بردّ الفعل . وباندفاع الدم من الظاهر الى الباطن يتهيج القلب ويشتد عمله وتقوى انقباضاته فيندفع الدم منه بسرعة الى جميع أعضاء الجسم فتزداد تغذيتها من توارد الدم اليها ويزول منها الاحتقان المزمن وتضحو أحسن حالاً للقيام بعملها . غير انه يجب

الانتباه جيداً عند استعمال الحمام البارد الى بعض النقاط : أولاً — ان الغطس انفجائي هو أفضل الطرق لأقوياء البنية خلافاً للضعفاء الذين يجب عليهم أولاً أن يدعكوا أجسادهم عنيفة أو أصفحة مبلولة ثم يغطسون في الماء . ثانياً — لا يجوز أن يقف الانسان في الماء وجسمه غير مغمور به لئلا يتسبب عن ذلك احتقان القلب والأعضاء الداخلية ولا يحصل من ذلك حينئذ رد فعل تام . ثالثاً — لما كانت الطرقة المعروفة بالدوش لا يحتملها إلا بعض الناس، وبخاصة الضعفاء والنساء والأولاد ، فيُستحسن إذ ذاك سكب الماء سكباً على جسدهم. أما أقوياء البنية فالطرقة تكون بالعكس مفيدة جداً لهم ولا يخشى عليهم من صدمة الماء الشديدة البادرة . رابعاً — من الناس من يتعرد الاستحمام بالماء البارد صيفاً شتاءً ، فهذا لا ضرر منه البتة لنشأن وأشداء البنية . أما الضعفاء فعليهم أن ينقطعوا عنه في فصل الشتاء وأيام البرد الشديد ، ويستعيضوا عنه بالغسل البسيط أو بمسح الجسم بأصفحة مبللة بالماء خوفاً من صدمة الماء البارد في بدء الاستحمام . خامساً — إذا أريد من الاستحمام تنشيط القوى والعافية فقط مع تجنب صدمة الماء فيستحسن إذ ذاك أن تكون درجة حرارة الماء أقل من درجة الهواء الجوي في الصيف بعشرة درجات ، ومساوية لها أو أعلى منها بعشر درجات في الشتاء ، فيغطس المستحم بها فجأة مدة ٥ — ١٠ دقائق ، ثم يفرك جسمه جيداً . وأخيراً لا يرتدي ملابسه إلا بعد أن يدفأ جسمه تماماً . وهذا الاستحمام في فصل الصيف لذيذ ومفيد جداً للجسم ويكسب المرء صحة ونشاطاً وارتياحاً .

* * *

ويمكن القول بوجه عام ان الاستحمام بالماء البارد يقوي العضلات وينبه القوى المنحطة ويلطف أو يخفف حرارة البدن ، كما انه يخفف من سرعة الدم فيفرج القلب والرئتين ويجعل سطح الجسم منيعاً ضد البرد ، خصوصاً بعد فركه وتجفيفه جيداً فيتجدد نشاطه ، ولذا يكتسب الجسم بالحمام البارد القوة والمناعة ضد النزلات والرشوحات والالتهابات المختلفة . أما من حيث مساوئه واضراره فالشخص الضعيف الجسم قد يرتعش من جراء ملامسة جسمه للماء البارد . واذا كانت الأعصاب ضعيفة خيف من الاستحمام بالماء البارد أن يذل المخ وان يبلد قوة التفكير خصوصاً في فصل الشتاء. كذلك قد يكون له أثر سيء في القلب اذا بلغ الانسان

أواسط العمر (فوق الاربعين) ، وخصوصاً الذين عندهم استعداد للتشنج Spasm ، أو عند المصابين بالنزوف المعوية والتهاب المريطون .

أما فائدة الحمامات الباردة في الأمراض المعدية والحمية ، والتي منها في الدرجة الأولى الحمّى التيفية ، فغير منكورة . وطريقة براند Brandt في مكافحة هذه الحمّى كما يلي : يعطى حماماً للمصاب درجته ٢٠ مئوية لمدة ١٥ دقيقة وذلك كل ثلاث ساعات مرة واحدة عند ما تبلغ أو تتعدى درجة الحرارة في الشرج ٣٩ مئوية . ويستحسن ، قبل أخذ الحمام ، رش وجه المريض وصدره بماء أبرد من ماء الحمام المراد استعماله له تخفيفاً لتأثير صدمة الماء البارد . وينبّه جيداً في الوقت نفسه لحالة المريض فيما اذا حدث له قشعريرة عند دخوله الحمام البارد ، أو اذا تلون وجهه أو فمه بلون أزرق بنفسجي . ففي هذه الحالة يجب اخراجه حالاً من الماء البارد وتدليكه بالكحول او الكولونية الى أن تعود للجسم حرارته الطبيعية ثم ينشف جيداً بفوطة نظيفة ويلبس ملابسه ، أو يلف في ملاية السرير أو البطانية ، ويعطى فنجاناً من أي منقوع دافىء مثل الزيزفون أو الشاي أو القهوة أو ليمونادة أو قدح من الخمر .

غير أن استعمال الحمامات الباردة حسب طريقة براند غير مقبولة من أغلب المرضى بالنظر لبرودة الماء التي تفاجىء الجسم . ولذلك يستحسن اللجوء الى حمام مبرد تدريجاً ، فيحضّر أولاً حمام درجة ٣٨ مئوية ، وبعد دقيقتين أو أربع دقائق يبرد ماؤه تدريجيًّا الى أن يصير بدرجة ٣٣ ، ثم ٣٢ ثم ٣٠ مئوية .

٤ — الاستحمام بماء البحر والبحيرات : هو أفضل أنواع الحمامات للأغنياء وأهداء البنية لأنه يجري في الهواء الطلق المشبع أوزوناً منشطاً من البحر ، ثم ان المستحم يكون مطلق الحرية في السباحة بمياه البحر ويستفيد جدًّا من هذه الرياضة البدنية . عدا ذلك فالأملاح التي في ماء البحر تكسب البدن قوة ونشاطاً وانتعاشاً بامتصاص الجلد لها ، هذا فضلاً عن لمس الأمواج التي تعمل على تنبيه الحواس والأعصاب . وهو من صنف الاستحمام بالماء البارد من حيث أن درجة حرارة الماء فيه بفصل الصيف تتراوح بين ١٧ و ٢٥ مئوية ، وكلما ازدادت برودة الماء يكون مفعول الاستحمام مقويًّا .

زد على ذلك ان ماء البحر من شأنه أن يساعد على الهضم ، ويفتح شهية الطعام ويقوي أعضاء الهضم والامتصاص فيساعد الجسم بذلك على التخلص من المواد غير الصالحة التي هي أول أسباب التعب والمرض ، وهكذا فله فائدته في تحسين الدورة الدموية . فالجلد يحتوي على شبكة مهمة جداً من الاوعية الدموية التي تعتري بدورها أحياناً عن جزء من خروج الدم ، وهذا التقلص يطرأ عليه زيادة أو انتقاص بحسب درجة حرارة الماء . فاذا كان هذا الماء بارداً فأوعية الجلد تفرغ قسماً من الدم الموجود فيها . واذا كان حاراً فالاوعية نفسها تمتلىء بالدم — ومن هذا نستدل ما لتأثير درجة حرارة الماء في الدورة الدموية العامة وفي تبادلات الحموية أيضاً بسبب هذا الانقباض والارتخاء ، ولذلك سمي الجلد بحق « القلب المساعد » .

وهناك أيضاً فائدة من الاستحمام بماء البحر بصفته مهيج للافراز الغدد الجلدية ، فهذه الغدد تفرز ، هذا الحوامض الدهنية والماء ، كثير من المواد السامة المتولدة من وظائف الجسم فبقدر ما يتقوى الجلد بصفته عضواً للافراز يكون تنظيف الجسم أحسن ، ومتى عرفنا أن تأثير الماء في الجسم يهيج الافراز ويطرد نفايات البدن ، أدركنا حينئذ ما للاستحمام في هذه الحالة من الأهمية والفائدة الكبرى .

أما مدة السبح بماء البحر فتختلف من دقيقتين أو ثلاث دقائق عند الضعفاء الى عشر دقائق أو أكثر عند الأقوياء وأهداء البنية ، وهذا منوط بحالة المستحم الصحية فيما اذا كان ضعيف البنية أو قويها ، معتاداً قبلاً على الاستحمام أو بالعكس . وبقدر ما يكون المستحم قوياً نشيطاً ومعتاداً على الاستحمام بماء البحر يمكنه البقاء مدة أطول في الماء والعكس بالعكس . ومهما يكن من الأمر فلا يجوز للضعفاء السبح في ماء البحر للمرة الأولى تجنباً للرعشة أو الصدمة التي تحدث أحياناً عند الغطس ، بل الأنسب أن يُبدأ بالاغتسال بماء البحر في البيت فاتراً أو بارداً . فاذا زادت قوة المستحم سار الى البحر واغتسل واستحم فيه . هذا من جهة . ومن جهة أخرى لا يُسمح للاطفال السبح بماء البحر إلا إذا بلغوا السابعة من عمرهم ، كما أنه لا يسمح أيضاً للذين بلغوا الخامسة والخمسين من العمر فما فوق السبح بماء البحر الا اذا كانوا معتادين عليه وبنيتهم قوية . وأحسن اوقات الاستحمام

بماء البحر هو من آخر الربيع إلى أواسط الخريف أو آخره . أما الزمان الموافق لهذا الاستحمام فهو الصباح قبل الفطور (للأقوياء) ، وبعده للضعفاء ، ويكون ذلك قبل الطعام وليس بعده مباشرةً ، أي أن يكون قد مضى على تناول الطعام ساعتين ونصف حتى يبدأ بالاستحمام ، ثم ينشف الجسم جيداً بعد ذلك بمنشفة خشنة بل أن يجمر الجلد ويدفأ كل الجسد .

ومن القواعد الصحية الأخرى للاستحمام بماء البحر (أو البحيرات) هو تأثيره الفعال عند ذوي الأمزجة العفاوية ، والمصابين بفتور الهضم وسوء الهضم والاضطرابات المعدية على أنواعها ، فيكون لهم والحالة هذه مقوياً منشطاً ومصلحاً بشرط ألا يكون مكثهم طويلاً في الماء ، وأن يعملوا كثيراً من الحركة والرياضة العضلية .

أما الحالات الصحية التي يحظر فيها الاستحمام بماء البحر فهي :

١ — عند المصابين بالسل الرئوي مع وجود حمى أو عدمها مهما كانت درجة المرض عند المصاب .

٢ — عند المصابين بضعف القلب أو أمراضه أي كان نوعها .

٣ — في أمراض الكلى والرئة (الروماتزم) والنقرس .

٤ — عند ضعيفي البنية والمصابين بتصلب الشرايين وأمراض الجهاز التنفسي .

٥ — عند الشيوخ والأطفال الصغار قبل السن الثالثة .

٦ — في الأمراض الجلدية الحادة والمزمنة ، وفي أمراض العيون والآذان .

٧ — خلال مدة الطمث عند النساء ، كذا في أوقات الحمل اذا كنّ غير معتادات عليه سابقاً .

٨ — عند بعض المصابين بأمراض الأعصاب أو بضعفها كالنوراستنيا مثلاً ، أما عند البعض الآخر فيكون بالعكس مفيداً لهم ، ولذا تجب مشورة الطبيب في هذا الأمر والاسترشاد برأيه .

بيروت الدكتور شبره مدني

الأب أنستاس ماري الكرملي

لقد غمر الأسى تلك القلوب التي تحنو على اللغة العربية بانطفاء مصباح ذلك الروح الذي ظلّ يرمي عليها من ضيائه ما ينير زواياها ، ويكشف عن معالمها ، وأهمل في الجوانح ذلك اللهيب من الحزن لانطواء هذه الحياة التي جادت بمذخور قواها وأنفقت صحة زهرة حياتها في القيام على خدمتها ، والذود عنها ، والعمل على حفظها ، ودراسة كثير من أصولها وبحث مشتقاتها ، حتى غدت مرجعاً موثوقاً بإطلاعه ، وإلمامه في أصول اللغة ، ومشتقاتها ، وبيان تلك الوشائج التي تربط بعض الكلمات العربية بنظائرها في اللغات القديمة ، وبحث كثير من دقائقها ، ونشر ما استتر من جواهرها ، ثم أخذ يمدها بأقوى الأسباب فوق ما يخرجه من كتب بتلك الأبحاث المتنوعة ، الناضجة ، التي كانت تتجاوب بها المجلات الأدبية في أنحاء العالم العربي حاملة اليه ثمرات جهد متواصل ، وعبقرية فذة ، ثم أخذ يصدر مجلته كأنما ضاقت مجهوده وناءت بمحصوله الصحافة والكتب ، فأراد أن يخفف من عبئهما بهذه المجلة .

* * *

والواقع أن هذا الرجل قد قدم للعربية من المنّ ما تعجز عنه الجامعات ، فقد احتلّ حبه لهذه اللغة ، وشغفه بها ، كل مشاعر نفسه ، وعواطف قلبه ، فهي مجال نشاطه ، ومجوى ضميره ، وموضع عنايته .

وحسب هذه اللغة أن تظفر بهذه الجهود التي تتجلى مظاهرها في هذا الولع في البحث ، والتنقيب ، كما تتجلى في الدأب ، والكد ، وراء المخطوطات النادرة ، فإذا ما أسعده الحظ ببعض هذه التحف ، إنثنى بها وهو لا يكاد يقف سروره عند حدّ ، فيسعى به حفيًّا ، ليطالعه في شوق ، ويستوعبه في لذة ، وقد كان له عناية خاصّة بوضع

الفوارس المنظمة لكتبه ، وبراعة فيها ، وهذه إحدى حسنات العرب التي فاضل الشمة باليمن ، ولعله كان الوحيد فيما أعلم في العالم العربي في عصره يعرف في بلاد اليابانية ، ومما سمعت منه أنه وضع معجماً كبيراً ، ولا يزال عنده مخطوطاً ، فليت يتفضل المجمع اللغوي بالإستيلاء على هذه البحوث ، ونشرها تعميماً للفائدة بها ، وشكراً بهذا الجهد ، وتلك الأهوام التي بذلت في سبيلها ، وتنظيمها من الضياع ، والضياع من أول وأعز من المجمع وكان — الآب — أحد أركانه الأقوياء ، ودعائمه المتينة ، وأنت أريد بهذه الكلمة دراسة هذا النابغة ، وتحليل آثاره القيمة ، فلكل هذا وقته ، وأنظاره ، إنما أريد أن أهدف من وراء هذه الحياة إلى عبرة نستخلصها منها ؛ وهي الإخلاص في اتجاه المرء من شؤون علمية كانت ، أو أدبية ، أو لغوية أو غيرها والتخصص في الناحية التي تبرز مزاياه فيها .

وقد توافرت هاتان الخصلتان في الآب أنستاس ، فقد أرادت بيئته أن تتعهد منه نشيئاً مبشراً ، فلم يستجب لهذا إلا بمقدار حتى لا يتجنى على مواهبه ، ولا يتحيف عبقريته . ثم عرف موطن قوته ، وسمت خلوده ، فأخذ يمده بكل ما يقويه ، وينشطه ، ويمده بالحياة . وحسبه هذا التوهب في محرابه العلمي ، وإنقطاعه في ديره للبحث ، ولتأدية ما يمكن أن يؤديه الانسان المخلص من ضروب التعبد العلمي ، وإخلاصه هذا الإخلاص الذي لم يدع فرصة يمكن الاستفادة منها ، واستغلالها لمواهبه وتركها ، فلم يلهو عن مواهبه حتى يلحقها الصدأ ، ويجني عليها الاهمال ، أو يجعل رسالته تحت مشيئة الظروف إن أتاحت لها العمل عمل ، وإلا جارت عليها الحوادث ، بل قد فرغ من كل شيء ، وإتخذها شغله ، وراحته ، ويقظته ، ونومه ، وهذا اخلاص يعز كثيراً في هذه الأوقات ، وكأنما المقادير شاءت بهذه اللغة ألا تحرم من أمثال تلك الجهود ، فوكلت بها هؤلاء الرهبان ، ما رأيت الآب أنستاس مرة إلا طافت بذهني هذه الخواطر ، وبرزت لعيني هذه الحقيقة التي لا بدّ منها لكل جهد علمي مثمر ، جزاه الله عن خدمته للغة — القرآن — خير ما يجزي العاملون المخلصون على عملهم وإخلاصهم .

محمد عبد الحليم ابو شبر

هذي هي الاغلال

هل الاغلال في أعناقنا ؟

ثورة جامحة ، تلك التي عصفت من حول كتاب « هذي هي الأغلال » الذي نشره الأستاذ القصيمي ، فاتهم الرجل في دينه واتهم في نواياه واتهم في أخلاقه . جماعات وأفراد ، هبوا جميعاً يقاومون الفكرة التي يبشّر بها ذلك الكتاب القيم ، فكرة أن العقلية الدينية الجامدة هي المصنع الذي تُمَدُّ فيه أصفاد العقل ، وتفتل فيه أغلال النفس . نزع الكتاب نزعة دينية رشيدة ، نزعة المسلمين الذين قال لهم نبيُّهم « وأعدُّوا لهم ما استطعتم من قوة » ، لم يقل القوة المادية ولا القوة المعنوية ، ولا عين نوعاً بنفسه من أنواع القوى ، بل ترك معنى القوة يتحيز في فهم كل جيل من أجيال المسلمين بمقتضى الملابسات التي تقوم من حوله . ومؤلف هذا الكتاب رجل حر الرأي واسع الفهم نيّر البصيرة ، إذ قضى بأن القوّة التي يجب أن يعدها المسلمون في هذا الزمن هي « العلم » بالصورة التي فهمها الغرب ، صاحب المدنية السائدة في زماننا هذا . ولا أظنُّ أن مسلماً من المسلمين يجادل في هذا مهما قعدت به الهمة عن تَفَهُّم روح العصر الذي يعيش فيه .

إلى جانب هؤلاء الذين أصابهم جمود العقلية الدينية ، رجال استطاعوا أن يتحرروا مما أصيب به غيرهم من مرض الرُّجعَى إلى أساطير الأوّلين ، ونزعة الخوف من كل ما ألبسه الزمن ثوبا القداسة ، ولقد اطلعنا على كلمة لفضيلة الأستاذ الشيخ حسن القاياتي أبدى فيها رأيه في كتاب « هذي هي الأغلال » تدمغ بعبارات منها ، باطل أولئك الذين حملوا فؤوس الهدم وراحوا يضربون بها الهواء ظانين أنهم يضربون بها في أصول الحق : قال فضيلته :

« معسكر الاصلاح في الشرق ، طليعته ابن خلدون ، باكورة الاجتماعيين ، وجناحاه « السيد الأفغاني » ، وتلميذاه « محمد عبده » و « السيد الكواكبي » ، أما قلبه فهو

« السيد القصيمي » زوال القاهرة اليوم ، نجدي في جبلته وقبائله ، وصيادته وعقاله ، ذلك هو السيد القصيمي ، إذا اكتحلت به عيناك لأول مرة : قلت : زعيم من زعماء العشائر النجدية ، تخلف عن عشيرته ، ليعيش طليقه ، حتى إذا جئت اليه فأصغيت الى حديثه العذب أصغيت الى عالم كبير يفيض بعلم دقيق واجتماعي .

« تعرّفت الى العالم النجدي القصيمي ، فجلست اليه مرة وسرة ، ثم شهدته كرة ، فناديك منه داعية اصلاح ، أكثر ما يليق به الشرق وأدواؤه ، وجبله ودواؤه .

« لم أقض العجب حين هبدت السيد القصيمي من عربي في شمائله ، ملتف في شملته ، يروعك منه عالم في مدرسته ، كان يعيش شرقيًا بغيرته الشرقية ، وقد بُليت مصريًا . أتحداني هذا السيد لعهد سأتناول بكتابه « في هي الأغلال » ، وأنا ملول مكسال ، فتثلت عليّ الاحاطة به ، تثل الهداية على القلوب ، والجد على القلوب ، ثم عدت فألقيت عليه نظرة جعلتني أمنحه إنباهة الهب المجمل ، على الحبيب المقبل ، فاذا الكتاب منهج اصلاح وخطة إفلاح .

« لقد احتوى كتاب السيد القصيمي برنامجًا لتكوين القومي ، قوامه الانحاء على أكثر من هذا الذي أصفه ، فأعنده من عيوب شائنة للشرق ، هي تلك الشاجية الآتية : فَتْرَةُ الشرق عن العلم ، تنويهه بالجهالة ، الزهد المتصنع ، تكرهه للحياة النبيلة ، صور التوكل المكذوب ، سوء الفهم لأسباب العمل ، الى مشابه لهذه النقائص الشرقيات ، بل المخزيات

« حيّا الله السيد القصيمي ، ما أصدق نظرته الى الحياة ، وأبعد مرماه في الهداية . لقد أذكرني حديثه — وما أكثر ما أذكره — عن فترة الشرق ، بل عن كيده للعلم ، أن إحدى دول الأندلس أو المغرب لعهد قصي ، حظرت تعليم الفلسفة ، وان دولة أخرى هناك حرّمت كتب مالك بن أنس ، رحمه الله .

أما بغداد حاضرة العلم الاسلامي وللمدنية الاسلامية فقد سقيت أرضها الري ، من دم أهل الفقه يقتتلون ، عصبية على العلم ، هذا من شيعة المذهب الفلاني ، وهذا من عدوه !!!

« أجل : لقد أذكرني السيد القصيمي أن مصلح العصر ، مجدد الأزهر ، أستاذنا « محمد عبده » لم يملك إدخال العلوم الاجتماعية الحديثة الى الأزهر ، الاّ عن رشوة نامة من الجوائز

المالية ، دفعها الى أهليه ، فاذا تلك العلوم تدرس فيه وإذا الأزهر يخطر في الحياة العلمية بخطى ضيقة مرة ، فسيحة كرّة ، إلى نهضته المؤودة اليوم بالنجح « وما يوم حليمة بسر »

« بي الآن أن أصل القراء الكرماء بفقرة لتعطفهم من أية ناحية لهذا الكتاب لا أعتمدها ولا أتخيرها بل أفتح الكتاب عنها ، كما يفتح المصحف للتفاؤل ، ليشهد القراء : أي لسان مبين ، وفكر يزين ؟؟؟ ، قال الأستاذ القصيمي :

« شمسان هبطا هذا الكوكب الأرضي الواسع الأرجاء ، فسار شعب تحت ضياء معرفته في قوة لا تكبو ولا تذل ، فاستقل واستقل . . . ، وشعب آخر هبط غريباً في هذا الكوكب ، جاهلاً نواميسه وقوانينه ، فلم يدر كيف يأخذ ولا كيف يدع . . . ، هذان شعبان ، فاذا عسى أن تكون النتيجة لاحتفاظهما ، ليس هناك أدنى ريب في أن الطبة ستكون للعلم والعرفان » .

هذا طراز موجز مما يفيض به الكتاب ، وتلك روح ملائكية السداد والتهدي ، وطراز أعلى من مذاهب العصمة الشعبية والجلال ، بيد أن لي لختين رفيقتين ، إلى بعض ما احتواه الكتاب في روحه العاملة ودعاوته الرائعة ، أولى اللختين : أن الأستاذ القصيمي حين استشهد على بعض قضاياه الاجتماعية ، ذهب ينشد أبياتاً من الشعر مصنوعة ، لشعراء العلماء ، أو العلماء الشعراء ، فيقيمها بيّنات على قضاياه تلك ، وإنما الشعر قضايا خطابية شعرية لقائل فرد ، لا تصف شأناً اجتماعيًّا ، ولا خلقيًّا ، أنشد الكتاب قول الزمخشري ، وهو عالم في تدوين العلم ، وتزين الجهالة ، على مذهب صوفي .

العلم للرحمن جلّ جلاله وسواه في عمراته يتقمم
ما للتراب وللعلوم وإنما يسعى ليعلم أنه لا يعلم

وقول ابن أبي الحديد المفسر :

فيك يا أغلوطة الفكر حار أمري وانقضى عمري
سافرت فيك العقول فما ربحت إلا أذى السفر
فلعى الله الألى زعموا أنك المعروف بالنظر
كذبوا إن الذي ذكروا خارجٌ عن طاقة البشر

أجل يا مولاي ، أليس الله تعالى وصف الشاعر « أخلوطة الفكر » ، « خارج عن طاقة البشر » فلا يستكثر من هذا ؟ ؟

على أن هذه المقالة ، وإن بريئاً منها ، مقالات شاعر متخيل ، وقائل متأوّل ، لا تقيم المذاهب الاجتماعية ، ولا تنهض قضيّة

أما ثانية المحتجين ، فتلك هي السيد القصيمي حين عهد تخلف الشرقيين ، بل المسلمين ، عن ركب الحياة ، وموكب البشرية ، تعليله إياس من انتهاضهم الاجتماعي ثانية ، ومن دبيب دم الأحياء في الأعضاء ، وحقّ له ذلك فإن حلية الدهر المهيب ، كحلية الدفين ! ! !

وقعدة الواهن في بيته كرقدة الميت في لحده

لست من رأي الأستاذ في خلو إبراجه من أن تدب الحياة في تجاليد الشرق ، ويعتق من الرّق ، ولا من وجمي الإباء والنباهة ، إلى الآباة ، فان الرّقيّ إذا نشأ ، ثبت ، وإذا قام ، استدام .

إن النهضة الاجتماعية إذا بدت ، سرت ، وإن تمت ، تأصلت . كنهضة الفجر في الليل يبدو خيطه بُدُوّ الشعرة البيضاء في الثّنة السوداء ، حتى إذا استمرّت حيناً ، طغى الصبح ، على الجُنْح ! ! !

محمد الفاياتي

***

وان المقتطف لعلى استعداد ، اتباعاً لما توحي به حرية الرأي ، أن ينشر كل ما يصله من بحوث الأدباء والفقهاء في هذا الكتاب على شرط واحد هو : أن يدور البحث من حول مسائل محددة المبادىء ونظريات علمية او فقهية توجّه فيها المناقشة توجيهاً سديداً ابتغاء الوصول الى الحق . أما الأقوال المائعة والعبارات التي تتناول وجهات غير محددة من البحث كالقول بأن الكتاب مريب أو انه صنيعة للمبشرين او انه دخيلة من دخائل المستعمرين بلا أية بينة من واقع او منطق ، فهذا ولا شك سلاح واهن يزيد الضعفاء ضعفاً ، ويمد عن مخيلة يكرهها العلم وينبذها الدين وتأباها الحرية ويمقتها الخلق السوي الذي هو من خلائق الرجال .

مكتبة المقتطف

كيف نسوس حياتنا بعد الخمسين

للاستاذ سلامة موسى — للطبعة العصرية بمصر

الأستاذ الكبير سلامة موسى — إذا جاز لي أن أصفه بتعبير من تعبيراته — « هجومي » التفكير لمستوزريه . فهو يتبنى كل رأي يحسبه صواباً ولو أجمع العالم على أنه خطأ وهو يجهر بمعتقداته دون أن يحبسها عن الناس كما يصد سواه .

وكتابه الأخير « كيف نسوس حياتنا بعد الخمسين » دعوة جريئة إلى التأنق في الحياة وإلى زيادتها عرضاً لا طولاً . فهو يقول : لا تفرط في المأكل والمشرب ، بل تأنق فيهما واجعل طعامك لذيذاً موزناً . ويقول كذلك : تأنق في ملبسك أيها الشيخ وعاشر الشبان وادأب في ممارساتك الجنسية ودخن إن كنت قد قضيت شبابك مدخناً ، واحتس الخمر باعتدال إن كنت قد ألفتها في ريعان شبابك ، وصل نفسك بالمطالعة واشغل وقتك بالهوايات والاهتمامات ، وروض جسمك دون أن تحمله فرطاً ، وتجنب النوم وقت القيلولة لأن النوم مظهر من مظاهر الموت ، واتخذ لنفسك ديناً [1] ، وحاذر البدانة والاستكراش ، واعرض نفسك على الطبيب لماماً ، وعود ذاكرتك على اليقظة الدائمة ، وتابع الأنباء والأحداث .

ثم يذكرنا الكاتب الكبير طرفاً من حياة شيوخ تقدم بهم العمر ولكنهم احتفظوا بفتوتهم الذهنية ، وفاطهم البدني وزاد تناجهم في وقت كان المألوف أن ينضب . فأصبحنا نرى صعد زغلول الفائح يقود مصر كفتى مشتعل الشباب ، وأصبحنا نقرأ مدونة

(١) الواقع أن تفسير كلة دين الذي أورده الاستاذ سلامة موسى لا ينطبق على « الدين » قدر انطباقه على « الفلسفة » .

جستنيان. نعم العزيز فهمي بالهما يترجمها دون أن يقعده تقدم السن، بل رأيناه — على حد قول الأستاذ صاحبه — يلقي فيلة بكورنيل مثلما دوى في دوي الشرق بدعوته الى هجرة الحروف اللاتينية واحلال حروفها العربية محلها. وأضحينا نقرأ عن جورج برنارد شو وله ومر في الثمانين من عمره يسوّد ويؤلف ويسرف في الكتابة كالبحر الزاخر الفياض. وأعلمنا وبر الذي ختم حياته قبل مطلع العام الجديد وكان ثوري التفكير سابقاً لعصره في آرائه ومستنداته. وعاك لطفي السيد بالها يتسع وقته وتحتمل صحته تصريف شؤون السياسة العليا والتكرف على درس فلسفة أرسطو وبحثها. وماذا نقول في ماضي ذلك الزعيم الحدي الضامر الجسم المتوهب في صحيفته القائم بالكفاح من المنبر والقلم. ومع ذلك استطاع بسياسة اللين السلمية، وبصومه الأيام والليالي أن يقلق امبراطورية ماردة وينقض مضجعها.

هذه أمثلة لبعض المعمرين الذين تحدث عنهم الأستاذ حلاق موسى في كتابه حديثاً طليًا يجمع بين الايجاز واصابة الهدف المقصود. وليته أضاف الى القائمة اسم الدكتور فارس نمر باشا الذي خلّف وراءه من السنين ولا يزال حاد الذاكرة، حاضر الذهن، يعي التحولات الفكرية الحديثة في ربوع العالم ويتابع نهضة التفكير في المجتمع الدولي. وليته لم يغفل اسم الأستاذ الكبير خليل ثابت بك وهو وإن كان قد تجاوز السبعين لا يزال فتي البدن والذهن نشيطاً لا يقعده العمل ولا تضنيه الكتابة، يخط بقلمه كل يوم أكثر من صحيفة كاملة من صحف مصر يعالج فيها شؤون السياسة الدولية كخبير اكتسب من تجربة الحياة ودروسها قدراً وفيراً. بل ليته حدّثنا عن نفسه وكيف استطاع وهو مشرف على الستين أن يحتمل مرارة السجن من بضعة أشهر ويجالد عوامل «التعرية» التي يتعرض لها نزلاء سجون مصر.

وأعتقد أن هذا الكتاب جدير بالقراءة والاستيعاب لا من جانب الشيوخ والمكتهلين، بل منهم ومن جانب الشباب الغائر المتمرين بالحيوية المتشح بالنضارة لأن شبان اليوم هم شيوخ الغد، ولأن المصريين بصفة خاصة ما فتئوا يعدون الشيخوخة فترة خمود وقعود وتنح عن العمل وما برحوا يتفلون عن وسائل استغلال الحياة الاستغلال النافع المجدي الذي يزيد سنينا حياة ولا يزيد حياتنا سنين.

وديع فلسطين

١ — تراجم إسلامية

للأستاذ محمد عبد الله عنان

يتمتع هؤلاء الذين يخلدون بالإيطنية في سبيل التقدم ، ويتركون في حياتهم آثاراً باقية ، بحظ وافر ، من عنايتها ، فهي تقف حيالهم موقف الدهش ، والإكبار ، لما استطاعوا أن يقدموه في مجال الحياة ، فيسوقهم ذلك الى التعرف إلى استبطان دخائلهم ، ومحاولة اكتشاف ما استسرَّ من حياتهم ، وعرض العوامل التي يعتقدون أن لها أثراً في حياتهم ، عسام يتقمون باحتذاء صاركم ، والنسج على منوالهم ، وارتياد تلك الطيام المشروب في الجوانح للوقوف على كل ما استجب ، وإظهار ماخفي ، كل هذه الدوافع قد مكنت هؤلاء أن يحتلوا مكانهم في صدر التاريخ العام ويتبوءوا بالجدارة ، والامتياز في التراجم الخاصة ، والتاريخ الاسلامي حافل ، خاص بهذه الألوان من الشخصيات التي تجد فيها الدراسات التاريخية ، والأدبية ، والنقدية ، والنفسية أوسع ميدان ، فلو فكرت هذه الشخصيات بمن يجلوها ويعرضها عرضاً علميًّا ، فنيًّا ، وفنيًّا موفقاً ، لكانت من أمتع ، وأنفع الدراسات في مجال التاريخ ، والأدب ، وقد قام الأستاذ — عبدالله عنان — بتقديم هذه الشخصيات التي تعد من ألمع الشخصيات في التاريخ الإسلامي ، وأروع الشخصيات في التاريخ العام ، كأجل ما يوفق المؤرخ المحقق ، والأديب المرهوب ، إلى إبراز هذه السمات ، وتلوين هذه الملامح.

ولا غرو فالأستاذ — عنان — يعد في الطليعة في هذا الضرب في الشرق ، فهو واسع الإطلاع ، عميق النظر ، قوي الملاحظة ، رصين الأسلوب ، جذاب العرض ، وهو يترجم في هذا السفر الثاني عشرة من أعلام التاريخ الإسلامي ، دون تقيد بالعصور أو الدول ، وقد حرص على أن تكون نماذج متباينة لشخصيات لها ميزاتها الخاصة ، ولا ريب أن شخصيات مثل هرون الرشيدي ، وست الملك الفاطمية ، وشجرة الدر ، والحسن الصباح ، وتيمورلنك ، وموسى بن نصير ، وعبد الرحمن الناصر ، وتبدو بميزاتها الخاصة نموذج فريدة في التاريخ الاسلامي ، تستحق قبل غيرها أن تعرض في أثواب حية ، محدثة ، وقد

خص البعض بالاخصية كتراجم هرون الرشيد ، وشجرة الدر ، وعبد الرحمن الناصر ، واقتصر بالنسبة لبعض الآخر على تقديم صور موجزة ، ولكن شاملة ، مركزة ، وقد اتبع قويا جميعاً منهج التسلسل التاريخي المدعم بأسانيده ، وقد قدمها جميعاً الى تبيان الخصائص البارزة للشخصيات التي تناولها ، وقد قسمها المؤلف الى كتابين : الاول يضم شخصيات الشرق الاسلامي ، والثاني يضم تراجم المغرب والاندلس . وقد اتبع الترتيب التاريخي في تبويب الكتابين . فجاء مثال الدراسة القوية ، الدقيقة ، فهل يفتح لنا هذا الكتاب السبيل الى الاكثار من معالجة هذا النوع القيم من الكتابة ؟ وان يمهد الطريق لتتولى العناية والدرس ما في تاريخنا من روائع ، فيكون فاتحة خير في هذا المجال .

* * *

٢ — دفاع عن العلم

ترجمة الدكتور عثمان أمين

لقد بات العلم وهو في أمس الحاجة إلى مثل هذا الدفاع الذي يرد عنه عادية المغرضين ، ويحتو عن شخصيته ذلك الغبار الذي أثاره التعصب الذميم ، وروجه الجهل ، حتى غدا وهو محط النقمة ، ومبعث البغض ، والعلم براء من هذه الصورة البغيضة والمنظر الشائن .

وقد استطاع هذا الدفاع أن يمزق ذلك القناع عن حقيقته ويزيل من الأنفس ذلك الشك الذي لا يهدأ ، وأن يرينا صورته غير مشوبة ، فاذا هي رائعة ، جميلة ، وهل هناك من هو جدير بالتبجيل من العلم الذي لا يثير حفيظته شيء مهما كان هذا نه ، بل هو يتجرد من كل داعية من الدواعي ، ويتخلص من كل هوى من الأهواء غير إقباله على تأدية رسالته في إخلاص ، وعناية ، يستقرىء ، ويراقب ، ويسجل ، ثم يعلن ما هداه اليه تجهوده ، ثم لا يحاول أن يفرض نتائجه على أحد ، وهو داعية لاخوة وعطف بين بني الانسان ، بل هو يحاول أن يجمع الكل على مائدة واحدة ، متآخية . وقد وفق في تقديم خير ما يمكن أن

يقدم للانسانية في كل ناحية من نواحيها . ولا يعد هو مسئولا عن هؤلاء الذين استغلوا نشاطه ، وسعوا على مجهوده ، وصيروه لمصلحتهم ... وشيع حراب ، من الشهرة بهذه الجزيرة ليس هو العلم ذلك الراهب في صومعته بعيداً عن كل مآرب غير مآرب الخدمة الانسانية بل هم الذين أخذوه هذا المأخذ ، فاذا ما تسلل إلى شعوبه أناس ، مدخولي الضمائر ، فلا يجب أن ينوه بذنوبهم ، ولا يرجم بأوزارهم ، وهو يستقل بنتائجه الخاص من الفلسفة والدين ، إذ كل منهما يعطي الصورة الأخيرة للعالم ، ويحجز العقل داخل دائرتها ، ولكن العلم لا يتصدى لذلك ، بل هو يترك الباب مفتوحاً لمن يحاول أن يجول جولته في ميدانه وإن كان هناك من الآفاق ما لم يصل فيها الى رأي فلا يطامن ذلك من عزته ، ما دام يقر بأن باب البحث لم يقفل بعد ، فلعل المستقبل يحقق ما لم يحققه الماضي ولا الحاضر ، هذا هو المحور الذي يدور حوله هذا الدفاع . ولكن الابداع كل الابداع في بناء هذا الدفاع ، وتسلسله ، وصحته ، ولضجته ، فهو محكم المقدمات جيد النتائج ، عميق النظرة ينفذ الى الباب ليريك بالتمهل لتأخذ أقصى ما يتهيأ لك أخذه بل بالبطء والوقوف في كثير من المواضع ، لانك لا تكاد تملك نفسك من الاعجاب ، ولا عقلك من الروعة ، كل شيء في هذا الدفاع يفتح أمام ذهنك عوالم من التفكير ، ويحور من نفسك تلك الغشاوة التي ألقاها أعداؤه فيها ، ويقربه الى قلبك ، بل يطيبه في نفسك . وليس هذا الدفاع يخلب نفسك من طريق التأثير العاطفي ، بل هو ينزل من نفسك هذه المنزلة بالحقائق التي يعرضها عليك في هدوء ، واتزان ، ولا تجد في نفسك ما يرفضها ، ولا في عقلك ما يزيفها ، وأنا لم أقرأ هذا الدفاع في لغته الاصلية ، بل قرأت الترجمة فحسبت بأني مغمور بجو المؤلف ، وشخصيته ، حية ، قوية ، مؤثرة ، ومعانيه واضحة ، وآراؤه جلية ، مما لا يدع ريباً في أن الدكتور — عثمان أمين — قد وفق توفيقاً حسناً في هذه الترجمة

والدكتور عثمان أمين — من شباب النهضة الفكرية المعاصرة المثاليين الذين تأمل النهضة على أيديهم الخير الكثير في هذا الجانب المخصب من الحياة العقلية .

محمد عبد الحليم أبو زيد

روضة الطفل

سلسلة من القصص المصورة للاطفال — دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

في مصر هيئتان تشرفان على الثقافة إشرافاً فعلياً في كل مرحلة من مراحل التثقيف. الأولى منهما رسمية تقوم على دعائم من السلطة الحكومية ومن خزانة الدولة والمجندين لها من رجالها وهي وزارة المعارف. أما الثانية فهي شعبية تقوم على دعائم من حرية المثقفين بها ومن تضحياتهم العظيمة في سبيل النهوض بالحركة الثقافية، ليس في مصر وحدها، وإنما قد تخطت جهودها وأهدافها حدود مكانها إلى ربوع الشرق العربي، وأعني بها «دار المعارف للطباعة والنشر».

فقد نهضت هذه الدار بالطباعة العربية نهضة مباركة، وأخرجت خلال مدة زادت عن نصف قرن مؤلفات نفيسة أغنت المكتبة العربية بثروة طائلة. ثم اتجهت منذ عدة أعوام إلى تثقيف النشء، فأصدرت كتباً في هذه الناحية سدّت نقصاً كان محسوساً، وفراغاً كان ملموساً. وقد أفاد من هذه الكتب جيل من الأطفال.

وإلى جانب هذا وذاك عنيت بالثقافة العامة فأخرجت السلسلة الثقافية التي قدمت القراء في جميع الأقطار العربية، في سهولة ويسر، ألواناً شتى من العلوم والفنون بأقلام خيرة الكتّاب ونعني بها سلسلة «إقرأ» فإن كل منصف يقدر لها جميل صنعها في إبراز هذه الجموعة [illegible] من تلك الأقبال العظيم عليها إقبالاً ملحوظاً يملأ السوق من فارغ القول.

وقد عادت هذه الدار أخيراً الى الاضطلاع بالمهمة التي كانت قد أخذت نفسها بها، وهي تقديم ألوان من القصص المشوّقة للاطفال موضوعة على احدث الأساليب الفنية في التربية وهي تهدف في ذلك الى تقوية ملكة التخيل في الطفل وترغيبه في الاطلاع، وقد عاونها في ذلك طائفة من الأساتذة الاخصائيين. وهي مهمة جليلة ليس هناك من هو أجدر بالقيام بها من تلك الدار التي عرفت بجودة اختيارها واتقان مطبوعاتها.

وقد أخرجت من هذه المجموعة الجديدة كتيّبين مطبوعين بالألوان طبعاً متقناً، أولهما باسم «الكتكت المدهش» والثاني باسم «أرنبو والكنز».

وهي آخذة بسبيل اصدار مجموعة أخرى في هذا المضمار بعنوان «أولادنا» تتفق في الغاية التي تهدف اليها هذه الدار مما يسجل لها بالاعجاب والتقدير.

الناطقون بالضاد في أمريكا

١٠٦ صفحة من القطع الكبير — القطع التجارية بالقدس — الثمن ثلاثون قرشا

الأستاذ يعقوب الشوملي المعروف في عالم القلم بالبدوي الملثم من الأدباء الذين خصت ربقتهم بألوان شاعرية ، نهر وتراث الفن بموسيقى العبارة ، مرهف الحس ، دقيق الملاحظة.

وهو إلى جانب ذلك مثلبس لدرويشة كل الإخلاص ، يخدل بالأدب العربي في كل صقع من أصقاع العربية — ويعنى بشؤونه عناية فائقة ، ورأيه إخلاصه أن أضاف الى المكتبة العربية إلى ما أضاف إليها من مؤلفاته السابقة كالثائرة المقنعة ، وإسلام نابوليون ، وأطلال جرش ، وما هو آخذ في إخراجه من مؤلفات كمكتابه عن فوزي المعلوف ، والشاعر الثائر ولي الدين يكن ، وديك الجن الحمصي . . . أضاف الى كل ذلك كتاباً ممتعاً توفر على نقله من الإنجليزية الى العربية هو كتاب « الناطقون بالضاد في أمريكا » .

ونقله لهذا الكتاب خدمة جليلة قام بها البدوي الملثم إلى أبناء العربية الضاربين في المهجر الأمريكي الشمالي ، والذين بهروا العالم بقوة عزيمتهم ، فقد نقلوا معهم الى هناك نهضة حيوية عجيبة في بابها في كل ناحية من نواحي الحياة : إجتماعية واقتصادية ، وأدبية ، وفنية ، وكان معهد الشؤون العربية الأميركية في نيويورك قد قام بنشر هذا الكتاب بالانجليزية عام ١٩٤٦ ، فاستهوى المترجم فكرة وأسلوباً ، فعكف على ترجمته رغبةً منه في أن يقف أبناء العربية في بقاعها على أنباء إخوان لهم هجروا أوطانهم — لا عن قلى — ولكن لينشروا أمجادها فكانوا رسل خير وبركة لم تقف بهم الغربة عن بلوغ مطمح ما .

وقد علق البدوي الملثم تعليقات ممتعة على هذا الكتاب جاءت هذه التعليقات خاتمة للفائدة من هذا الكتاب .

وإنا إذ نعجب بمجهوده في إخراج هذا الأثر نرجو منه أن تتاح له الفرصة ليكمل هذا الكتاب ببحث عن الناطقين بالضاد في المهجر الأميركي الجنوبي فانهم لا يقلون قوة أثر وعظم مجهود عن إخوانهم في الشمال .

عمر كامل الصيرفي

فهرس الجزء الثاني

من المجلد العاشر بعد المائة

٨٣ مدرسة الاسكندرية وانتقال حركة العلم الى أنطاكية : اسماعيل مظهر

٩٤ مأتم (قصيدة) : عدنان مردم بك

٩٥ الأطفال عشراء الوحوش : غوص جندي

١٠٠ برلمان الطبيعة (قصيدة) : شاعر البرلري

١٠١ الصراع في العالم العربي : الياس يعقوب

١١٣ تلمس في الظلام : ضياء الشخلي

١١٥ أم من الجحيم (قصة مترجمة) محمد جلال مظهر

١٢٠ عالم العين — شعر علي : نقولا الحداد

١٢٢ تخريج كتاب الملل والنحل للشهرستاني : محمد بن فتح بدران

١٣٣ الرياضيات في العلوم الطبيعية : فؤاد جبران

١٣٦ الأثر الدنيوي في الفن القبطي : الدكتور باهور لبيب

١٤١ الاستحمام وفوائده الصحية والطبية : الدكتور عبده رزق

١٤٩ الأب أنستاس ماري الكرملي : محمد عبد الحليم أبو زيد

١٥١ هذي هي الأغلال : حسن القاياتي

١٥٥ مكتبة المقتطف « كيف نؤسس حياتنا بعد الحرب » : وديع فلسطين . تراجم إسلامية . دفاع عن العلم . محمد عبد الحليم أبو زيد . روضة الطفل . الناطقون بالضاد في أميركا : حبيب كامل الصيقي .

لحق

من ١ — ٥٢ — لورد كليف : تأليف ماكولي : تعريب عبد المنعم صادق

سجل الخالدين

لوائح المقتطف الشهرية

لورد كلايف

مؤسس الامبراطورية البريطانية في الهند

تأليف

ماكولي

نقله بتصرف الى العربية

محمد السباعي صيادي

طبع بمطبعة المقتطف بمصر

١٩٤٧

نشأة كليف

في القرن الثاني عشر هبطت أسرة كليف مقاطعة شروبشير واقتنت مزرعة قريبة من «ماركيت دريتون». وظلت تعيش على ما تغله من إيراد . . . وفي خلال حكم الملك جورج الأول آلت هذه المزرعة الى مستر ريتشارد كليف الذي لم يكن يتميز عن أي رجل عادي بأية موهبة أو كفاءة ، ولكنه أصبح من رجال القانون. وكان وقته موزعاً بين واجباته كقانوني والتزاماته كزارع يشرف على مزرعته . وتزوج في مانفستر من سيدة من أسرة هاسكيل . أنجبت له عدة أبناء كان أكبرهم روبرت كليف مؤسس الامبراطورية البريطانية في الهند، وكان مولده في التاسع والعشرين من شهر سبتمبر عام ١٧٢٥ .

ودرج الطفل من مهده وبدأت تتجلى فيه تلك الصفات التي سجنته في صباه وشبابه ولازمته في رجولته وكان أبلغها ظهوراً قوة إرادته وحدة عاطفته وشجاعته التي لاحدّ لها والتي كان يصحبها أحياناً تهوّر واندفاع مما دعا الناس الى اتهامه بالجنون . ولقد حكي عنه ببلي كليف إنه كان مولعاً أشد الولع بالمقاتلة فكان يغضب ويتشاجر لأتفه الأسباب . ولقد كان أهل القرية يذكرون تلك المعامات التي كان يكوّنها في صغره من زملائه في الطفولة ويفرض على أرباب الحوانيت إتاوة ليضمن لهم سلامة واجهات محالهم . وسببت هذه الصفات لأهله كثيراً من المتاعب فأخذوا ينقلونه من مدرسة الى أخرى دون أن يحصل على أي قدر من العلوم بل يزداد شهرة في الاعتداء على الناس باليد واللسان . ومع هذا فقد تنبأ له أحد أساتذته وهو الدكتور إيدون بأنه «لو عاش هذا التلميذ حتى صار رجلاً وتهيأت له الظروف المساعدة، فانه سيكون رجلاً عظيماً». ولكن الاعتقاد العام في روبرت كان «أنه غبي شرّير» وكانت عائلته لا ترجو منه خيراً ، فلم يكن غريباً منها حين بلغ الثامنة عشرة من عمره أن توافق على تعيينه كاتباً في خدمة شركة الهند الشرقية . وودعه ذووه على ظهر السفينة

التي حملته إلى فرع الشركة في مدراس وكانوا يرجون له الثراء أو الموت .

وكانت شركة الهند الشرقية شركة تجارية محضاً وتشغل بضعة أميال مربعة في بلاد الهند تدفع عنها إيجاراً سنوياً للحكومات الوطنية . وكان لها قبائل من الجند قليل العدد لا تكفي للاشراف على ثلاث أو أربع قلاع متتابعة مقامة لحماية مستودعات الشركة . ولم يكن هؤلاء الجنود وعظمهم من الوطنيين الهنود قد تدربوا على النظم العسكرية الأوربية وكان سلاحهم السيف والدرع أو القوس والنشاب . وكانت مهمة موظف الشركة تنحصر في مورد البضائع أو دفع عرابين لعملاء الشركة من التجار أو الاشراف على شحن السفن . هذا الى مراقبة حركات التجار الذين يجرؤون على مزاحمة الشركة . وكان صغار الموظفين مضطرين الى الإستدانة لضآلة مرتباتهم ، أما كبارهم فكانوا يشتغلون لحسابهم الخاص فأصبحوا على شيء من الثراء . أما أولئك الذين كانوا في الوظائف الرئيسية فقد تيسر لهم جمع ثروات طيبة .

أما فرع الشركة في مدراس حيث عين روبرت كليف ، فكان أهم فروعها حيث قلعة سان جورج التي أنشئت في سنة ١٦٤٠ في مكان قاحل تغير عليه دائماً أمواج المحيط الصاخبة . وكان على مقربة منها ثلاث قرى كل منها في شمال الأخرى وتكوّن في مجموعها مدينة مدراس ، فأولاها المدينة البيضاء حيث يقيم الثمانة الانجليزي وبضعة أوربيين آخرين و « المدينة السوداء » حيث تجار الأرمن والهنود وثالثتها قرية يقيم بها الوطنيون الفقراء . وكان عددهم آخذاً في الازدياد .

وفي داخل القلعة وما جاورها كان للانجليز من الحقوق ما كان لأي مالك هندي آخر في ممتلكاته ولكنهم لم يطمعوا يوماً في الاستقلال بهذه البقعة من الأرض التي كانت تابعة لأقليم الكرنات الذي كان عليه « نواب » ينوب في حكمه عن « نظام » الدكن الذي كان يستمد سلطانه من المغل العظيم جانكيز خان والمتربع على عرش دلهي .

الى الهند

وكانت رحلة كليف مجهدة له ولاسيما في تلك السن المبكرة . وقد دست السفينة خلال تلك الرحلة على ميناء ريو دي جانيرو حيث ظلت تسعة أشهر واستطاع المتاعر الشاب أن يعلم

الكثير عن البرتغاليين في إقليم البرازيل . وكان طول اقامته فيها سبباً في أن يأتي على ما كان معه من نقود وان يقترض من ربان السفينة وبلغت السفينة مدراس بعد أكثر من عام ، وكان كليف مفلساً ومريضاً مثيلاً إذ لم يكن يتعدى خمسة جنيهات في الشهر . واضطر الى الاستدانة . وكان مقامه في مكان لا يصلح لسكن أوروبي في ذلك الجو الحار وكان حين وصوله يحمل خطاب توصية لرجل كان من المحتمل أن يجد فيه عوناً له ، ولكنه لم يجد الرجل إذ كان قد سافر الى انجلترا قبل مقدمه . ومنع كليف حياؤه ثم كبرياؤه من أن يتقدم الى من لا يعرفهم . وهكذا قضى في بلاد الهند بضعة أشهر قبل أن يتعرف الى غيره أو الى أسرة واحدة . وأثر المناخ وسوء الاقامة في صحة الفتى ونفسه إذ لم يكن ما يؤديه من عمل يتفق مع نشاطه وجرأته فأحس بحنين الى وطنه واشتد حنينه اليه فكتب الى صديق له في انجلترا يقول « لم أشعر يوماً منذ غادرت أرض الوطن أني سعيد وان الحزن والأسى ليعتريانني حين أفكر في انجلترا وكم أكون سعيداً عند ما تتاح لي فرصة زيارتها لا سيما مانشستر محط آمالي » .

ووجد هيثاً من الراحة حينما كان يسمح له وكيل الشركة بزيارة مكتبته وصار يقضي بين جدرانها أوقات فراغه وأقبل على الاطلاع على ما حوته الكتب التي وصلت الى يده .

ولكن لا المناخ السيء ولا الفقر القاسي ولا الدرس والاطلاع ولا مرارة النفي ، قد هذبت من نفسه المتمردة فكان موقفه من رؤسائه دائماً هو موقفه من أساتذته في المدرسة حتى كاد يفصل من عمله يوماً ما واشتد به اليأس مرتين فحاول الانتحار في كليهما ولكن الرصاص لم ينطلق من مسدسه في واحدة منهما ، فانقلب يأسه أملاً واعتقد أن الأيام تدخره لعمل عظيم .

الضابط كليف

وكانت انجلترا في حالة حرب مع فرنسا في أوربا وكان طبيعياً أن تكون الحال كذلك في بلاد الهند ، فقد هاجم لابوردونيه حاكم موريشيوس الانجليز في مدراس واستولى على قلعة سان جورج وعلى المدينة ورفرفت الأعلام الفرنسية على القلعة واتفق مع الانجليز

على أن يعتبروا أنفسهم أسرى حرب وتعهد بأن تبقى المدينة في يد الفرنسيين حتى تدفع لهم التعويضات اللازمة فيرحلوا عنها .

ولكن انتصار لابوردونيه أثار غيرة مواطنه دوبليسه حاكم بندتشيري فأعلن أن لابوردونيه قد تجاوز حدود سلطته في عقد هذه المعاهدة وان جميع المقترحات التي تمت في بلاد الهند تحت الراية الفرنسية انما تكون خاضعة لحاكم بندتشيري وحده . وبهذه النظرية ضم مدراس اليه وساق كبار موظفي الشركة الى بندتشيري وسيرهم في سفن أرسلها لاعتقال كبير شهده خمسون ألفاً من المشاهدين . واستطاع كليف أن يهرب من الأسر ليلاً فآوى الى قلعة سان دافيد وكانت احدى القلاع التابعة لمدراس ولم تسقط بعد في يد الفرنسيين .

وهكذا تهيأت لكليف الظروف التي تتناسب مع سفاته ومميزاته وطلب من أولي الأمر في سان دافيد أن يعينوه ضابطاً في القوات البريطانية وأجيب الى طلبه . وكان سنه وقتذاك احدى وعشرين عاماً . وحدث أن اقتتلت في عراك مع أحد جنود الفرقة التي كان بها وكان هذا الجندي مشهوراً بالقوة البدنية الهائلة وكان مصدر فزع الفرقة كلها وانتصر عليه فؤاد قدره عند زملائه والتفوا حوله وبدأت الأنظار تتجه اليه لما امتاز به من الشجاعة والعدل والحكمة والاخلاص في طاعة الأوامر، وبدأ نجمه في الصعود في أثناء المعارك المحلية التي كانت تدور بين الانجليز والفرنسيين حتى استرعى بأعماله نظر قائده الميجور لورنس .

وعقد الصلح بين انجلترا وفرنسا فعادت مدراس الى الانجليز وبهذا عاد الضابط الشاب الى الحياة المدنية ثم تركها الى الزي العسكري ولم يمكث به غير قليل حتى عاد الى وظيفته الكتابية . وبينما كان في تنقلاته هذه بين الحياتين العسكرية والمدنية حدث ما حدد مصيره واتجاهه . ذلك ان الحرب وإن وضعت أوزارها في أوربا إلا أنها قد هبت أوارها في الهند بين الشركتين الانجليزية والفرنسية اللتين كانتا تتنازعان للحصول على أملاك تيمورلنك في الهند .

ولقد كانت الامبراطورية التي أسسها المغول في القرن السادس عشر من أوسع وأعظم الامبراطوريات التي نشأت في التاريخ حتى ذلك الحين ، من حيث عدد السكان أو مقدار الثراء أو مظاهر الترف والنعيم . إلا أن صيانة الحكم في تلك الامبراطورية حتى في أوج مجدها كانت سيئة جداً وذلك لأن نظام الحكم المطلق هو الذي كان سائداً فيها وما نشأ عن

حكم التتار وهم أقلية لشعب كبير العدد من أجناس متباينة ومن وجود خلافات قامت بين قبائل الهندوس . ولكن هذه الأحداث لم تؤثر في مظهر الدولة الخارجي فبدت عظيمة متماسكة وإن كانت قد هدت من كيانها الداخلي . وظلت على هذا الوضع حتى أواخر حكم أورنجزيب في سنة ١٧٠٧ وبموته إنهارت الدولة كأنها بيت من الورق.

فقد تولى الحكم بعد هذا الامبراطور في خلال أربعين عاماً، ملوك قنعوا بأن يكون لهم الملك بالاسم والاقامة في قصور تهيأت لهم فيها كل وسائل النعيم والترف والخمول واللهو والخمر والحشيش والنساء وأهازيج الأوتار ، وذلك في وقت كان المغيرون فيه ينتقصون الدولة من أطرافها ويلتهمون ثرواتها، فهبط نادر شاه ملك فارس في ١٧٣٩ سهول الاندوس في الشمال الغربي من بلاد الهند واقتحم أبواب دلهي وحمل منها كنوزها إلى بلاده وأعقبته قبائل الأفغان وراجبوتانا ثم قبائل المهراتا . وكانت أشد القبائل للغيرة وحشية وقسوة وأصبحت مصدر رعب دائم للهنود . فما كان يسمع الفلاح صوت قرع طبولهم حتى يحمل ما تيسر له حمله من متاع ويهرب الى الجبال أو الغابات حيث يجد في مجاورة السباع أمناً لا يجده في مجاورة الذين كانوا يفرضون الجزية على الولايات والتجار الأوربيين ، بل إن الامبراطور نفسه كان يدفع لهم مايفرضونه عليه صاغراً وهو يرى من نوافذ قصره في دلهي ، نيرانهم فوق قمم الجبال القريبة .

***

وتقاسمت القبائل المغيرة أملاك الامبراطور ونشأت فيها دويلات صغيرة في طول البلاد وعرضها ، كانت لا تليث أن تضعف وأن يسترد السلطان فيها نواب يتصبون أنفسهم حكاماً تابعين إسماً للامبراطور الضعيف يرسلون له الهدايا الفاخرة دليلاً على تلك التبعية التي تكسبهم صفة شرعية لحكم البلاد التي يحكمونها وكانوا فيها اصحاب السلطة الحقيقية لا يمكن عزلهم أو نقلهم إلى جهات أخرى وكان هؤلاء النواب مسلمين، فكوّنوا أسراً اسلامية توارث الحكم في اقليمي البنغال والكرناتك .

دوبليه

ورأى دوبليه وكيل شركة الهند الفرنسية هذه الفوضى الضاربة أطنابها في بلاد الهند، ورأى بثاقب فكره المتوقد وقوة ذهنه الجبار، انه يمكنه أن يستفيد من هذه الفوضى الشاملة فيؤسس على أنقاضها امبراطورية فرنسية تضم تحت لوائها المسلمين والهندوس على السواء والهنود الوطنيين وقبائل المغيرين معاً وان يؤلف من تلك الشعوب المتباينة في الجنس واللغة والدين والعادات شعباً واحداً يدين بالولاء لفرنسا . ولم يقنع دوبليه بتحديد الغاية بل رسم الخطة التي توصله الى تحقيق هذه الغاية، وذلك في وقت كان فيه أقدر موظفي الشركة الانجليزية لا يشتغلون إلاّ بأعداد الفواتير وجرد المخازن والاشراف على الشحن ومراقبة التجار المحليين .

وكان دوبليه يرى أن ما يمكن لأي أمير هندي جمعه من جند لا يستطيع أن يقف — مهما كان عدد جنوده من الكثرة — في مواجهة قوة صغيرة من الجنود النظاميين والمدربين على النظم الاوربية ، وانه من الميسور تدريب الجنود الوطنيين على النظم الغربية الحديثة فيصبحون قوة عظيمة، وان الطريقة المثلى للتفاهم الاوربي هي مراقبة الحوادث والاستفادة من تطوراتها وان يتخذ من الخلافات التي تنشأ بين الأمراء سبيلاً للتدخل بينهم واتخاذ بعضهم ستاراً يتصل من ورائه على تحقيق غايته — هذه هي السبل التي رسمها دوبليه وسار فيها الانجليز فيما بعد.

ولقد حدث أن توفي « نظام » الدكن في عام ١٧٤٨ وورث ملكه إبنه ناصر جنج وكانت « الكرناتك » أغنى المقاطعات التابعة له يتولى الحكم فيها « نواب » أنوار الدين منذ عام ١٧٤٠ وكان طبيعيًّا في تلك الفوضى الشاملة أن يظهر أمراء طموحون يطالبون بالعرش، وأن يجدوا العون في أولئك الوصوليين الذين يهبون مع كل ريح طمعاً في المغانم والأسلاب، فظهر مطالب لعرش الكرناتك وكان إسمه شندا صاحب، ومطالب آخر لعرش الدكن وإسمه مبرزا فاجنج الذي كان حفيداً للنظام الراحل . واتحد هذان المطالبان وانضم تحت لوائهما الكثيرون ولم يكتفيا بذلك ، بل طلبا من الفرنسيين مدد أزرهم في هذه المطالبة . ووجد

الفرنسيون الفرصة سانحة لتحقيق أغراضهم ونيل مآربهم فأمدوها بقواتهم واضمن المنافسان الى هذا المدد كل الأضمنان ، لاسيما وقد رأيا الفرنسيين يتقدمون على الانجليز في ساحل « كورومانديل » .

وتقرر أن يبدأ بغزو مقاطعة الكرنات فسارت الحملة وقد زاد في قوتها ما أمدّها به الفرنسيون من قوات بلغ عدد أفرادها أربعمائة جندي فرنسي وألفي جندي هندي مدرّب على النظم الأوربية . وكان طبيعيًا أن ينتصر الحلفاء على قوات « نواب » الكرنات وأن يشتروا به ويقتلوه وأن يهرب إبنه محمد علي الذي لجأ الى « تريشنوبولي » وأن تتم بهذا سيادة الغزاة على مقاطعة الكرنات . فنصب هندا صاحب نوابًا عليها . وكان دوبليه الساعد الأول في هذا التنصيب فأصبح صاحب النفوذ الأول فيها والحاكم الحقيقي لتلك المقاطعة .

وبعد بضعة أشهر قضاها الحلفاء في حروب ومفاوضات ومؤامرات برزت فيها كفاءة دوبليه وساعده حسن حظه فأصبح صاحب الأمر والنهي في إقليم الدكن كله ، ذلك أن ناصر جنگ قتله أتباعه وتولى مكانه ميرزافا جنگ ، وبهذا انتصرت السياسة الفرنسية في ذلك الجزء من بلاد الهند وأقيمت حفلات التتويج الرائعة في مدينة بوندتشيري حيث أطلقت المدافع ودقّت أجراس الكنائس وبعد أن تمّ تتويج ميرزافا « نظامًا » لاقليم الدكن أعلن هذا تعيين هندا صاحب « نوابًا » لمقاطعة الكرنات و« دوبليه » حاكمًا على ذلك الجزء من بلاد الهند الذي يقع بين راس كومورين ونهر كريستنا والذي يبلغ عدد سكانه ثلاثين مليون نفساً ومنحه من الامتيازات ما فاقت به امتيازات هندا صاحب ، فقد عين رئيساً لسبعة آلاف فارس وجعل صك النقود قاصراً على بوندتشيري ، واستولى على جميع خزائن المال والنفائس التي كان أمراء الدكن قد جمعوها طيلة حياتهم . وقد تواترت الأنباء عن قدر ذلك المال الذي انساب الى خزائن دوبليه ومنها ما يحدد قدره بمائتي الف جنيه . وفي الواقع لا يمكن تحديد ما جناه الحاكم الفرنسي من وراء تلك الحملة فضلاً عن انه أصبح الحاكم المطلق على ثلاثين مليون نفس إلى نفوذه الكبير في الاقاليم كله فان أمراً ما كان يبت فيه قبل استشارته .

ولم يبق ميرزافا جنگ في مركزه العظيم سوى أشهر قلائل . ثم تولى مكانه أمير آخر من نفس الأسرة مستنداً الى نفوذ الفرنسيين فوافق على جميع الامتيازات التي منحها لهم سلفه

وأصبح اسم دوبليه يثير الرعب في النفوس حتى في نفس الأمير نفسه . وكان الأهالي يعجبون كيف أصبح قائد المعاصر الأوروبي أن يحرز كل هذا التوفيق في مدة لا تزيد على أربعة أعوام . ولم يكتف دوبليه بهذا النصر ، بل استولى على القرور فشاء أن يرسخ في أذهان الهنود والانجليز على السواء ما فاته بعيداً عن تلك الأذهان من قوة مركزه واتساع سلطانه، فأمر بإقامة مسلة في نفس المكان الذي سقط على مقربة منه ناصر جنج وعين ميرزا جنج وأن يكتب على هذه المسلة أنباء انتصاراته وأن يكتب كل وجه من وجوه المسلة الأربعة بلغة غير التي يكتب بها الوجه الآخر حتى يعلم الشرق كله من هو دوبليه وما هي فرنسا . وحول هذه المسلة أنشئت مدينة دوبليه الفاتح .

وقام الانجليز بمحاولات ضعيفة لوقف تفوق الشركة المنافسة وظلت تعترف بمحمد علي كنواب لمقاطعة الكرناتك رغم أن هذا الأمير لم يكن له سوى قرية تريشنوبولي ، وحتى هذه القرية أصبحت الآن محاصرة يقف على أسوارها قنصل صاحب وأعوانه الفرنسيون . وكان لابدّ من رفع هذا الحصار ولكن هذا الأمر بدا مستحيلاً ، فقيادة الانجليز في مدراس كانت بدون قائد لأن الميجور لورانس عاد الى انجلترا ولم يكن هناك ضابط واحد يمكن الاعتماد عليه . وكان الهنود يرون أن الفرنسيين هم سادة المستقبل فقد رأوهم يوم استولوا على قلعة سان جورج وشهدوا الأعلام الفرنسية ترفرف عليها ورأوا كبار موظفي الشركة الانجليزية مسوقين في ركاب المنتصرين في شوارع بوندتشيري ، ولمسوا انتصار جيوش دوبليه في كل مكان حلت به ورأوه صاحب الأمر في الأقليم كله بينما لم يروا من الانجليز إلا الضعف . في تلك اللحظة ظهر محاب انجليزي مغمور تجلت فيه الشجاعة والقدرة، فتغير مجري الأمور .

اركوت

كان كليف في تلك الأثناء قد بلغ الخامسة والعشرين من عمره، وبعد أن قضى فترة طويلة في تلك الأثناء بين حياتيه العسكرية والمدنية، عين بصفة دائمة في وظيفة تجمع بين الناحيتين وهي وظيفة ضابط تموين فصائل الجند برتبة كابتن . واستطاع هذا الضابط الشاب أن يقنع

ولاة الأمر في مدراس بأنه من الواجب أن يبذل مجهود لإنقاذ تريشنوبولي ، وإلاّ فإن تلك القرية ستسقط في أيدي الفرنسيين وتقتل محمد علي وشقيقة أنوار الدين وتتم بهذا سيطرة الفرنسيين توطيد سيطرتهم على الهند كلها . وأنه لا بدّ من القيام بغزوة كبيرة . فإذا ما وجهت هذه الغزوة إلى أركوت عاصمة الكرناتك التي يتسلط المقام فيها حكام الكرناتك ، فليس من المستبعد في هذه الحالة أن يرفع الحصار عن تريشنوبولي . ورأى رؤساء كليف أن فكرته وجيهة تستحق التأييد ، لأنهم كانوا يخشون أن يجيء يوم تعلن فيه الحرب بين فرنسا وانجلترا في أوروبا وتصل إلى الهند فتهجم قوات فرنسا الموجودة ببلاد الهند على أملاك الشركة الانجليزية في مدراس وتدمر المدينة نهائياً ، وتبعاً لذلك وافقوا كلية على ما ذهب إليه ، وفوضوه في أمر تنفيذ الفكرة ، وجعلوا تحت إمرته مائتي جندي انجليزي وثلثمائة جندي هندي مدربين تدريباً أوروبياً . ولم يكن بين ضباط هذه الحملة سوى إثنين عهدا الحرب وعرفا ما هي . وصارت الحملة في جوّ عاصف مطير حتى بلغت أبواب أركوت فذعرت الحامية وأطبقت القلعة وولت الأدبار فاحتلها كليف دون أن يطلق رصاصة واحدة .

وكان كليف يعلم أنه لن يترك آمناً في اركوت وإنه سيهاجم حالاً فأقبل على جمع الأقوات والذخائر وتقوية الاستحكامات إستعداداً لحصار ومواجهة الهجوم المتوقع . وكانت الحامية التي هربت عند مقدمه الى ضواحي المدينة قد جاءها مدد أصبحت به عدتها ثلاثة آلاف رجل عسكرت بظاهر المدينة حتى أقبل المساء ، فخرج عليهم كليف فجأة ، وأصل فيهم القتل ، فمات كثيرون وهرب الباقون . وأخيراً عاد الى قلعته دون أن يخسر رجلاً واحداً من رجاله .

وبلغت أنباء هذه الأحداث الى هندا صاحب ، حيث كان يحاصر هو وحلفاؤه الفرنسيون مدينة تريشنوبولي ، فجرّد أربعة آلاف رجل من جنوده وأمرهم بالسير الى اركوت . وهناك انضمت إليهم فلول حامية المدينة التي بقيت من المعركة السابقة كما جاءهم مدد آخر ، إن يكن أقل عدداً ، إلاّ أنه كان أكثر أهمية من الوجهة الحربية . وكان هذا المدد مكوناً من مائة وخمسين جندياً فرنسياً أرسل إليهم من بوندتشيري . وبهذا أصبح عدد القوات المتحالفة عشرة آلاف مقاتل يتولى قيادتهم راجا صاحب ابن هندا صاحب .

وتقدم بهذه الحملة نحو قلعة اركوت مصمماً على حصارها ، وكان يرى أن هذا الحصار كاف للإستيلاء عليها لأنها في رأيه لم تكن لتحتمل الحصار الطويل لتهدم جدرانها وجفاف الخنادق المحيطة بها وضيق الصون المخصصة لتصريف الفزائع في أعالي الأسوار.

وتدام الحصار خمسين يوماً تناقص خلالها عدد الحامية فأصبح ١٢٠ أوروبيًّا و٢٠٠ وطني ، ولم يكن بين هذا العدد من الضباط سوى أربعة . أما القوة فأوشكت على الفناء وكان الذي يتولى قيادة الحامية شاب في الخامسة والعشرين من عمره كان عمله أمس كاتباً في أحد مكاتب الشركة .

ولكن هذا الشاب « كليف » أبدى في قيادته الحزم والقدرة واليقظة ما لو أبداه أي قائد عظيم في أوروبا لنال من أجله أعظم الأوسمة وأفخر النياشين . ولكن الانحلال بدأ بعد هذه المدة الطويلة يدب في قوى الحامية إذ بدأت تحس وطأة الجوع القاسي . ولكن رغماً من قلة عدد الضباط ورغماً من اختلاف العناصر التي كانت تتألف منها تلك الحامية لم تظهر روح التمرد والعصيان بين الجنود ، وهي الروح التي كان من المحتمل أن تظهر بين أمثالهم في ظروف مشابهة . ذلك لأن حب كليف الذي كان قد تمكن من قلوب جنوده وإعجاب هؤلاء به ، قرّب بينهم وأزال الفوارق الدينية والعنصرية وزاد روح التضحية عندهم قوة . ويمكننا أن نعلم قوة هذه الروح بين أولئك الجنود من تقدم الوطنيين الى كليف وهو في إبان أزمته ، لا ليشكوا قلة الجراية المخصصة لهم ، ولكن ليقترحوا عليه أن يخصص الحبوب كلها للاوربيين من زملائهم لأنهم على حد قولهم أكثر حاجة الى التغذية منهم لأنهم لم يتعوّدوا الصبر على الجوع كما تعودوه ، ولأنهم غرباء أحق بالرعاية . وعرض أولئك الفداليون على قائدهم أن يطعمهم بنشاء الأرز الذي كانوا قد تعودوه غذاء لهم ولم يرو التاريخ أروع من هذا المثل في التضحية والوفاء العسكري ، ولا أبلغ منه دلالة على محبة الجنود لقائدهم .

* * *

ولقد حاولت حكومة مدراس أن ترفع الحصار عن أركوت ، ولكن هذه المحاولة فشلت ، وظلت الحامية تقاسي متاعب هذا الحصار حتى لاح بريق الأمل من ناحية أخرى . ذلك أن حيدر قوامه مئة آلاف من جنود (المهراتا) الذين اتخذوا الجندية مهنة وتعلم الفارق

وحيلة لعيش بقوتهم موراري راو كانوا قد استوحروا بالحملة محمد علي في تريشنوبولي، الا انهم استعصوا وقتاً طويلاً من هذه النعمة .

فقد كان يظنون أن قوة فرنسا لا تقاوم ، وأن النصر حالف لمشداً صاحب الذي اشد أزره هذه القوة ، فظلوا لا يحركون ساكناً مقيمين على حدود الكرناتك . حتى إذا علموا نبأ حصار أركوت وتلك القوة العجيبة التي أبداها الانجليز في مقاومة هذا الحصار ، أيقظهم ذلك من سباتهم وأطلق موراري راو أنه لم يظن أبداً أن الانجليز يستطيعون الحرب الى هذا الحد . أمّا وقد رأى منهم ما رأى ، فانه سيساعدهم ما وسعته المساعدة . وعلم راجا صاحب أن المهراتا في طريقهم اليه ، وانه لا بد من الاقدام على عمل سريع يتفادى به الالتحام مع تلك القوة الخطرة ، فحاول بادىء ذي بدء مفاوضة كليف وعرض عليه رشوة كبيرة لعله يقبل شروط الصلح التي عرضها عليه ، ولكن هذا رفضها باستهانة وسلف ، فاقتطر راجا صاحب إلى أن يثور ويعلن أنه اذا لم تقبل شروطه فانه سيقوم بهجوم عام على القلعة وانه سيقتل جميع من فيها بلا استثناء . فردّ عليه كليف في ازدراء وتهكم بهذا الوعيد .

وأخذ كليف يعد عدته لمقاومة الهجوم المنتظر ويقوي من استحكامات القلعة ويرتب مواقف الجنود ويجهز الذخائر ويصلح من أدوات القتال . حتى بدأ الهجوم العظيم — فتقدمت الفيلة التي تغطي رؤوسها صفائح الحديد .

كان قائد المهاجمين مطمئناً الى أن أسوار القلعة ستتداعى تحت أقدام هذه الفيلة وأن الامر لن يكلفه أكثر من ذلك . ولكن هذه الفيلة ما اصطلت بنار الانجليز حتى ولت الادبار وداست بأقدامها في تقهقرها أولئك الذين كانوا يسوقونها . الا أن بعض جنود راجا صاحب استطاعوا عبور الخندق المحيط بالقلعة ولكن رصاص المدافعين ردهم عنها أكثر من مرتين . ودام القتال ساعة سقط فيها أربعمائة رجل ولم يفقد المدافعون غير خمسة أو ستة رجال . وقضى كليف ليلة عصيبة كان يتوقع خلالها أن يقوم راجا صاحب بهجمات جديدة ، ولكن ما انبثق ضوء الفجر حتى لم يعد للمهاجمين أثر ، فلقد فروا تاركين وراءهم سبعة مدافع وكمية كبيرة من الذخائر . وهكذا رفع الحصار عن أركوت .

ووصلت هذه البشرى الى قلعة سان جورج فسر السرور والابتهاج ، وأصبح كليف في أعز مكان لديه وجنوده لا يألوا جهداً ، فأرسلت اليه حكومة مدراس مائتي جندي انجليزي وسبعمائة جندي هندي لتعزيز قواته . فلما وصلت كليف هذه الامدادات تحول بها من الدفاع الى الهجوم فزحف بقواته على قلعة تيمري واستولى عليها ، وهناك انضم بجزء من قوات موراري راو فضمها تحت لوائه وسار بهذه الجيوش لمواجهة راجا صاحب الذي كان على رأس خمسة آلاف وجل يتبعه ثلثمائة فرنسي فنشبت بين الفريقين معركة حامية نال فيها كليف نصراً حاسماً استولى به على خزانة راجا صاحب، وانضم اليه على أثره مئتان هندي من جنود الراجا واستقبلت له كوتجيرام دون أن يطلق رصاصة واحدة،وكذلك انضم اليه حاكم «أرنيه» بعد أن ترك جانب هندا صاحب وأقرّ بولاية محمد علي.

ولو كان الأمر بيد كليف وحده لسار به الى نهاية طيبة وسريعة ولكن المدير والضعف اللذين كانت حكومة مدراس تبديهما في قراراتها وأوامرها، كل هذا أطال أجل الصراع دون أن تكون هناك ضرورة لذلك ، فاستطاع راجا صاحب خلال فترة التردد هذه أن يجمع شمله واذ يسير على رأس جيش قوي بينه أربعمائة جندي فرنسي الى قلعة سان جورج، فلما صار في ضواحيها اعتدى على مساكن موظفي الشركة الانجليز وخربها ولكن كليف سارع اليه واستطاع أن يحيط بجنده ويزوهم هزيمة منكرة قتل فيها فيمن قتل مائة جندي فرنسي وكان هذا خسارة كبرى ، تعادل خسارة بضعة آلاف من الوطنيين . وحينئذٍ اتجه كليف ببصره نحو قلعة سان داڤيد .

سار كليف وقد قويت روحه المعنوية كثيراً الى قلعة سان داڤيد وصرّ وهو في طريقه اليها مدينة دوبليه الفاتح والنصب التذكاري المقام بها وأمر بتدمير المدينة والنصب تدميراً شاملاً . ولم يصدر في ذلك الأمر عن غيرة شخصية ؛ ولكنه صدر عن رغبة ملحة لازالة العقيدة التي تركها في نفوس الأهالي اقامتها . وليشد ذلك المظهر الرائع الذي كانت تلك الآثار تضفيه على الفرنسيين حتى تسرّب الى نفوسهم الاعتقاد بأن فرنسا لا تقهر ،وانها هي الدولة الأوربية الأولى التي لا يمكن للانجليز مقاومة سياستها .

وقررت حكومة مدراس أن تحتفل بهذا النصر، بفرق قوية لألعاب نارية فاخرة تريشنوبولي. وما تم الاتفاق على من كان طيبور لورانس قد وصل من انجلترا وتقرر أن يتولى القيادة العامة. وكان المفروض في مثل هذه الظروف أن يتحكم الغرور في نفس كليف بعد كل ما مهد له من نصر رائع في العمليات الحربية التي قام بها أو تنور فيه نزعاته القديمة التي ظهرت فيه طفلاً وصبياً من العناد والمكابرة والمشاكسة فيرفض العمل تحت قيادة الميجور لورنس. ولكن الذي حدث والذي يدل على علو نفس كليف أنه خضع لقيادته. فلم يبد أي تواخ في أداء واجباته بل كان مخلصاً كل الإخلاص مطيعاً نشيطاً.

ولم يكن لدى الفرنسيين قائد يستطيع أن يقف أمام الصديقين، إذ أن شهرة دوبليه كانت قائمة على أساس أنه سياسي داهية صاحب نصيب كبير في تلك المؤامرات والمفاوضات التي تمت حينذاك في بلاد الهند. أما دوبليه المحارب فلم يكن ليستطيع أن يقود جيشاً أو يخوض معركة فلم يكن جندياً يوماً ما ولم تكن له رغبة لتصبح كذلك حتى لقد اتهمه أعداؤه بالجبن. ولكي يدحض هذا الاتهام حكي عنه أنه في خلال إحدى المعارك صارع الى قنبلة ملقاة على الأرض عقب إشعالها ولكنه بلغها متأخراً. فلما انفجرت كسته بطبقة من التراب فالتفت الى جنوده قائلاً (ما أنتم تروني يا أبنائي أنزا لا تنصر). ويرى النقاد الحربيون أنه لم يكن قائداً بل كان كل ما يصلح له إنما هو وضع الخطط الحربية. ولقد دفع دوبليه عن نفسه تهمة الجبن بقوله إنه يفضل الابتعاد عن مواطن الضرب، لأن الهدوء والسكينة تخلقان الجو المناسب له، والذي يستطيع فيه أن يضع خططاً محكمة تجيء متى نفذت بدقة بنتائج طيبة. ولكنه كان دائم الشكوى من أنه لم يكن لديه ضباط يحسنون تنفيذ خطته بإحكام. ذلك بعد أن ترك «باسي» ولحق ببلاط النظام وبقي في خدمته يرعى مصالحه الشخصية ويخدم وطنه عن طريق السياسة، وان من بقي لديه من ضباط إنما كانوا غباناً يجهلون شئون الحرب ولم يكن بينهم من كان متصفاً بأية مهارة أو حذق.

وانتصر الانجليز في كل مكان فبعد أن كانوا محاصرين في قلعة تريشنوبولي أصبحوا هم يحاصرون أعداءهم ويكرهونهم على الاستسلام. ووقع هندا صاحب أسيراً في أيدي المهراتا وأعدم. ويقال إن هذا الإعدام تم بناء على طلب محمد علي. وبهذا تم انهيار سياسة دوبليه

وغضبت عليه ادارة الشركة الفرنسية في باريس فسكتت عن مده بالمدد والتشجيع . ورغم هذه الصعوبات ، فان دوبليه لم يتطرق اليأس الى نفسه ، ولم تثبط همته ، ولا نضبت موارد فواصل مقاومة الانجليز بالطريقة التي يتقنها ، طريقة الدس والمؤامرات وبذل المال بالوفرة والاسراف في الوعود الخلابة ، حتى لقد ذكر بروته بل انتظر الى الاستدانة . كل ذلك في سبيل إثارة أعداء جدد على حكومة مدراس . واستطاع أن يجد أعوانا له ولكنه رغم هذا كله قد ذهبت جهوده أدراج الرياح لأن قوة ويطانيا في الهند كانت قد أخذت في البناء على عكس ما حدث لقوة فرنسا التي بدأت تنهار وكان انهيارها سريعاً .

ولم تكن صحة كليف منذ أن نزل أرض الهند طيبة يوماً ما ، ولكنها بلغت من السوء ما حمله على أن يصمم على العودة الى انجلترا . وصاقت إليه الظروف عملاً وحتمت عليه أن يؤديه قبل رحيله وكان هذا العمل الذي وكل إليه به ، هو حملة مجيدة زادت متاعبه وآلامه . ولكنه قام بها بكل نشاط ومهارة . ذلك أن قلعتي كرفالونج وهنجلبت كانتا في أيدي الفرنسيين ورأي الانجليز أن يقوموا باحتلالها ووضعت الخطة لإتمام هذا الاحتلال . ورأى ولاة الأمور أن خير ضابط يمكن اسناد رئاسة الحملة إليه هو كليف ، وكان قوامها خمسمائة هندي حديثي عهد بالتدريب العسكري ومائتي إنجليزي جند استطاعت الشركة أن تجمعهم من مكان أحط أحياء مدينة لندن ، وكانوا يتصفون بسوء السلوك وفساد الأخلاق . ولم يكونوا على شيء من الروح المعنوية . ورغم هذه الظروف جميعاً تولى كليف قيادة هذه الحملة وهو مريض وضعيف وسار بالحملة الى كرفالونج الى أن صار تحت أسوارها . وما أن أطلقت منها رصاصة على جنوده وصادفت مقتلاً من أحد هؤلاء الجنود وهوى صريعاً بين زملائه حتى راعهم الأمر وولوا الأدبار . وقاسى كليف الأمرين في سبيل إعادة النظام نبتة الى نفوس الجند وحملهم على الثبات في القتال ومجابهة الخطر ، وكان يضرب لهم المثل الطيب بوقوفه بينهم وفي الصف الأول من صفوفهم حتى استطاع أن يجعل من تلك القوى المنحلة قوة واحدة متماسكة وقوية ، استطاعت أن تفتح كرفالونج . وعلم كليف إذ ذاك أن حملة قوية قد أرسلت من هنجلبت لإنقاذ كرفالونج . فأعدّ لها كميناً في الطريق وقع فيه الفرنسيون القادمون ومات منهم مائة رجل وأسر ثلثمائة وفرّ الباقون ، وأخذ يتعقب كليف هؤلاء الفارين حتى أبواب

فتحطيت وكانت من كربات المدن المحصنة بالهند وحاصرها حتى استسلم له قائدها.

وعاد كليف الى مدراس منتصراً ولكن حالته الصحية كانت قد ساءت الى حدّ كبير وزاد في ضعف صحته ذلك الإجهاد الكبير الذي عاناه في حملته الأخيرة فلم يكن بدّ له لا سيما وقد تزوّج، من أن يعود الى انجلترا بصحبة عروسه التي كانت من عائلة كريمة وكانت هذه العروس فتاة رشيقة ومتعلمة ومخلصة وهبته كل قلبها.

العودة الى الوطن

وأبحر كليف عقب الزواج مباشرةً ومعه عروسه ووصل انجلترا فاستقبلته البلاد رغم أنه كان في السابعة والعشرين من عمره إستقبال القوّاد الفاتحين، لأنها كانت ترى فيه أحد قوادها المبرزين. ذلك لأن أوربا كانت في تلك الآونة تتمتع بالسلام فلم تكن هناك حرب إلاّ في أقليم الكرنات في الهند بين الانجليز والفرنسيين، وكانت أعمال دوبليه تثير قلقاً كبيراً في لندن وكان لكليف الفضل الأكبر في إزالة هذا القلق بشجاعته وكفاءته اللتين أبداهما في الانتصار على الحاكم الفرنسي. وأطلقت عليه الشركة لقب الجنرال كليف. وبهذا اللقب نودي في جميع الإحتفالات التي أقيمت له. وقدمت له هدايا ثمينة كان بينها سيف مرصع بالجواهر، ولكنه رفض قبوله ما لم يمنح الميجور لورنس مثيلا له. وكان هذا اعترافاً منه بفضل صديقه ورئيسه ووفاء منه له، ولم يقتصر تكريم كليف على الشركة، بل كان تكريمه عامًّا ساهمت فيه الهيئات والأفراد.

وكذلك أحسنت أسرة كليف إستقباله والترحيب به بعد إذ أبهجها نجاحه وسرها ما نال من توفيق وعجبت كيف أصبح روبرت الخامل في صباه، رجلاً عظيماً في شبابه بل إن والده كان لا يؤمل قطعاً في أن يبلغ روبرت أي نجاح أو يصل الى أي نبوغ حتى علم أبناء دفاع كليف عن أركوت، حينئذٍ قال إن أمله في ولده بدء يبعث من جديد. وما زال تقدير مستر ريتشارد لولده يزداد عقب كل نجاح يحرزه، حتى تمكن من فؤاده حبه وتقديره، بل وأصبح يفخر بذلك الابن.

وأصاب روبرت كليف بعض المال قبل عودته الى أرض الوطن وزاد نصيبه مما منحته اياه ادارة الشركة في لندن ولم يكن أنانيًّا ولا جشعاً كما انه لم يكن ابناً عاقًّا فسدد ديون

أبيه كلها وعمل على اصلاح مركزه المالي اصلاحاً شاملاً وشمل بورثته بعنايته فعنى بالاصلاح والرعاية والتجديد حتى عاد لها بهاؤها وروعتها وعبابها وزاد اتقانها وتضاعفت غيراتها . وحتى أمكن ان يطمئن الاب أن يعيش مما تغله من خير كثير في أمان . وكما كان بارًّا بأبيه كان بارًّا بنفسه فأخذ يصرف عن سعة وعاش مدى حين في الجلترا عيشة بذخ وترف أتت على ما كان قد بقي لديه .

وحينئذٍ فكر في العودة الى بلاد الهند وكما كانت الحكومة تفكر في اعادته الى تلك البلاد كذلك كانت الشركة ترى ضرورة ارساله اليها حيث كانت الحال تستدعي وجوده هناك واستغلال مواهبه وكفاءته وخدماته، إذ انه رغماً من وقوف الحرب بين الانجليز والفرنسيين في مقاطعة الكرنات بعقد معاهدة كانت في صالح الانجليز أعقبها عزل دوبليه وعودته الى فرنسا — بعد اذ فقد ثروته التي كان قد قضى زمناً طويلاً في جمعها وفقد أمله في تكوين إمبراطورية فرنسية في الهند — حيث مات حزيناً . فان الدلائل كلها كانت تنذر بوقوع حرب طويلة بين الفرنسيين والبريطانيين وكان لا بد من ارسال قائد ماهر الى ممتلكات الشركة الانجليزية بالهند فتقرر تعيين روبرت كليف حاكماً لقلعة سان داڤيد ومنحه الملك رتبة لفتنت كرلونيل في الجيش البريطاني . وهكذا اجتمعت في هذا التعيين رغبات ثلاث . رغبة الحكومة ورغبة الشركة ورغبته الشخصية . فأبحر الى اقليم الكرنات في عام ١٧٥٥ .

في اقليم البنغال

وكان أول عمل حربي قام به كليف بعد عودته الى الشرق هو الاستيلاء على معقل القرصان (انجيريا) في (غريا) الحصينة والمقامة على شبه جزيرة صخرية يحيط بها الماء من معظم جهاتها . وتعاون معه في هذا العمل الأميرال وطسن بأسطوله واستطاع بهذا التعاون الاستيلاء على الحصن وعلى جميع ما كان به من مال بلغت قيمته مئة وخمسون الفاً من الجنيهات تقاسمها الغزاة .

وعاد كليف الى مقر عمله في قلعة سان داڤيد ولم يمض على مقامه بها أكثر من شهرين حتى بلغه نبأ أثار حيرته ونشاطه الذهني .

وكان هذا النبأ يتعلق باقليم البنغال الذي كان يمتاز بوفرة محاصيلاته وجمال مناظره وخصب

أراضيه ، فضلاً عن وداعة أهله ورقتهم ، وحبهم الدائم للسلم ولباقتهم في المديح . وكانت الشركات التجارية الأوربية قد انشأت لها فروعاً بين ظهراني أهل الاقليم. فالهولنديون تمركزوا في هندر ناجور ، والهولنديون في شينصوره ، والانجليز في منطقة قريبة من البحر أسسوا فيها قلعة وليام لتحمي كنيستهم ومخازنهم ومنازل كبار موظفيهم القريبة منها والممتدة على شاطىء نهر الكنج . وعلى كثب منها قامت قرية وطنية كثيرة السكان كبيرة الحركة كان يقيم بها بعض كبار التجار الوطنيين . وكان هذا الجزء من الاقليم الذي اختاره الانجليز فقاموم أهم أجزاء اقليم البنغال لقربه من البحر ولوفرة حاصلاته ما كان منها ينمو على سطح الأرض وما يعيش منها تحت سطح الماء .

وكان اقليم البنغال وأوريسا وبيهار خاضعاً لحكم علي واردي خان الذي كان يتبع امبراطور المغول اسماً ، ولكنه كان يتمتع في حدود مملكته بكل سلطات النفوذ الواسع وكان منشأ علي واردي خان هذا انه كان خادماً في اقليم بيهار واستطاع أن يستغل الظروف الواحد تلو الآخر ، حتى أصبح نواباً لتلك المقاطعة ثم استغل أيضاً فرصة انكتاح نادر هاه لبلاد المغول في عام ١٧٣٩ فقام بثورة على الأسرة التي كانت تحكم اقليم البنغال كله باسم ملك المغول وقتل في معركة غربا في يناير سنة ١٧٤١ — رأس هذه العائلة وحل محله على العرش. وفي العام التالي استطاع أن يقدم الى الامبراطور كثيراً من الهدايا فوافق جلالته على تعيينه نائباً له في اقليم البنغال وأوريسا وبيهار ولم يكن علي واردي خان في حاجة الى هذه الموافقة إلا ليكتسب صفة شرعية في حكم البلاد .

ومات في عام ١٧٥٦ وورث عنه ملكه حفيده الشاب سراج الدولة الذي يحكى عنه أنه ولد بغير عاطفة ، فقد كان في طفولته يتلهى بتعذيب الحيوانات الصغيرة لا سيما الطيور وكان كلما تقدمت به السن نحو الشباب ازداد قسوة ووحشية نحو الحيوان بل ونحو اخوانه في الانسانية وأصبح يحلو له أن يشهد الناس يتألمون ويبهجه عذابهم . وكان سكيراً مدمناً أتت الخمر على ما كان قد بقي من عقله الذي ولد به . ولي الحكم في العشرين من عمره وكان مستبداً بطيء الفهم يرضيه ما تبذله له حاشيته من ألفاظ متملقة ، وما تتملقه به من مديح وإطراء .

ولقد كان مراج الدولة يمقت الانجليز منذ طفولته ويكرههم بغير ما سبب ويستحل سلب أموالهم ، والآن وقد آل إليه الأمر فقد تلمس سبباً لاعلان الحرب عليهم ووجد هذا السبب في قيامهم بتحصين قلعة وليم وكان من هذا التحصين هو ان الانجليز كانوا يتوقعون نشوب حرب مع الفرنسيين وساء مراج الدولة أن يلجأ الانجليز الى هذا التحصين دون أن يحصلوا على اذن منه بذلك . وثمة سبب آخر تذرع به مراج الدولة لحربه مع الانجليز، ذلك أنهم آووا في كلكتا ثريًا من أثرياء الهند كان قد بلغ من الثراء مبلغاً يستتبع فيه أمير الاقليم عادةً قتل أمثاله وسلبهم أموالهم وكان هذا الثري قد عين حاكماً على دكا في الوقيقة التي خلت بقتل حاكم تلك المدينة والاستيلاء على أمواله . فلما رأى ذلك الثري المصير الذي ينتظره تظاهر باعتزام الحج . وجمع أمواله كلها وأرسلها الى ولده في كلكتا ، ثم لحق به الى هناك . فلم يقبل الانجليز تسليم اللاجيء الى طالبه . ورأى مراج الدولة في هذين السببين مبرراً كافياً للقيام بحملة ضد الانجليز فسار إليهم على رأس جيش كبير .

وكان الانجليز في أقليم البنغال غير إخوانهم في منطقة مدراس فهؤلاء أصبحوا رجال سياسة وحرب بفضل احتكاكهم بدوبليه ، أما أولئك فلم يعدوا كونهم رجال تجارة فحسب ، فان وكيل الشركة نفسه لما علم بتقدم مراج الدولة إليه ، وكان يعلم قبلاً مبلغ قسوته . إنتابته الحيرة والارتباك ، فلم يدر ما هو صانع حيال ذلك الخطر الداهم ، وأخيراً إهتدى إلى وجوب الإتجاه إلى إحدى السفن الانجليزية الراسية في الميناء . وكذلك حذا حذوه قائد حامية قلعة وليم . وقنع الاثنان بالأمان في مخبئهما ، ولم يقوما بأية محاولة لإنقاذ باقي رفقائهما الذين كان من الممكن جداً إنقاذهم في تلك القوارب التي كانت تملأ مجرى النهر ولقد سجل التاريخ عليهما هذه المعرّة إذ لم يروا شبيهاً لها في تاريخ الامبراطورية البريطانية على وجه خاص .

وبعد مقاومة هزيلة استولى مراج الدولة على القلعة وأسر من وجدهم فيها من الانجليز، حتى إذا استتب له الأمر جلس في قاعة الشركة الكبرى . وأمر فأحضر بين يديه مستر هولويل الذي كان أهم رجل بين الأسرى ، وتحدث إليه عن مبلغ إساءة الانجليز إليه واعتدائهم عليه . وأبدى له استياءه من قلة ما وجد من المال إلاّ أنه وعد بإطلاق سراح أسراه من الانجليز . ثم أمر رؤساء جنوده بالمحافظة على هؤلاء الأسرى وآوى إلى مضجعه .

غرفة الموت

وفي تلك الليلة حدثت الجريمة التاريخية الكبرى التي امتازت بالوحشية والأعمال الانتقامية التي قام بها الانجليز عقب ذلك ، فان الأسرى الانجليز حشروا حشراً في غرفة ضيقة سيئة التهوية لا تزيد مساحتها عن ٢٠ قدماً مربعة . أما الذين سجنوا فيها فقد كان عددهم مائة وستة وأربعين رجلاً . فلم يستطع أحدهم أن يتحرك أو يجلس ، وقد كان منهم المسن والضعيف . وكان الجو في تلك الليلة خانقاً خارج الغرفة الجهنمية فما بالك به في داخلها . وذهبت محاولات أولئك الأسرى للافراج عنهم سدى وتوسلاتهم أدراج الرياح ، وأغلق الباب عليهم ، وظلوا فيها طول ليلهم ، تستبد بهم العطش والتعب ، يطلبون الرحمة فيقابلهم الحراس المطلون عليهم من كوى بأعلا الجدار بضحكات السخرية والاستهزاء وحاولوا يائسين تحطيم الباب ولكن الباب كان متيناً . وحاول هولويل رشوة الحراس ولكنهم قالوا إن الأمر كله بيد سراج الدولة ، وعظمته نائم لا يمكن إيقاظه بل إنه من الخطورة بمكان أن يحاول أحد إيقاظه . وأخذ الأسرى وقد ذهب برشادهم اليأس يتزاحمون في محبسهم ويدوس بعضهم بعضاً في تدافعهم نحو منافذ الهواء الضيقة ليطلبوا شربة ماء ، فلا يقابلوا إلا بالاستخفاف والامتهان . وأخيراً لجأوا إلى أن يطلبوا من الموكلين بهم إطلاق النار عليهم لإراحتهم من عذابهم الذي كانوا يقاسونه ولكن كان نصيب طلبهم هذا الإهمال . وتقدم الليل وتقدموا هم إلى الفناء فقلت المحاولات ، وضعفت القوى ، وخفضت التنهدات والصرخ البكاء ، حتى إذا انبلج الصبح واستيقظ صاحب العظمة وأمر بإطلاق سراح السجناء لم يبق من يطلق سراحه إلا عشرون هيكلاً بشرياً . وأخذ الحراس يزيحون أجسام القتلى يميناً ويساراً ليفسحوا ممراً بين الجثث لتلك الهياكل المتمايلة تخرج منه الى الهواء متساندة من الضعف والخور مغادرة غرفة الموت . وحفرت حفرة واحدة جمعت فيها بقايا الهالكين وهيل عليهم التراب .

ولم تأخذ سراج الدولة رحمة بمن ماتوا ، ولا رأفة بمن بقوا ، بل أمر فأوتي بهم إليه وهددهم بشتى أنواع التنكيل إذا هم لم يبوحوا له بسر مكان خزائن الشركة . ثم سيرهم في شوارع المدينة زيادة في التشهير بهم ، ولكن ذلك كله لم يفده شيئاً . وأخيراً عفى عنهم لا لأنه

رأى أن العفو أصلح ، ولكن لأن ... قريباته توسطت لديه في شأنهم بعد ما شعشته من الانجليزية الوحيدة التي قدّر لها أن تعيش بعد ما شاهدته في تلك الليلة الليلاء في دار الموت ثم ضمت الى حريم سلطانه .

تجريدة كليف

وأرسل سراج الدولة الى جلالة الامبراطور في دهلي ينبئه بما حصل بالانجليز وطردهم كلكتا بعد أن غير إسمها الى «ميناء الله» وبعد أن أبقى بقلعة وليم حامية هندية . وفي ١٦ أغسطس من ذلك العام وصلت الى مدراس أنباء سقوط كلكتا ، فأثارت حقد الانجليز وأخذوا ينادون بوجوب الأخذ بالثأر والانتقام . واجتمع الرأي على تجريد حملة إلى أقليم الهوجلي تحت قيادة كليف وأن تصحب الحملة قوات بحرية تساهم معها في العمليات الحربية المنتظرة . وأن يتولى أمرها الأمير الموطن ، وفي ١٦ اكتوبر أبحرت الحملة وكان قوامها تسعمائة جندي انجليزي من خيرة الجنود ، وألف وخمسمائة جندي من الهنود المدربين تدريباً عصريًّا . ولم تصل هذه القوات إلى أقليم البنغال إلا في شهر ديسمبر من نفس السنة ذلك ، لأن الرياح لم تكن موائية . وحينما نزل الجنود إلى البر في أقليم الهوجلي وبلغت أنباؤها مسامع الأمير وهو في مرشد آباد استهان بأمرهم إذ لم تكن لديه أية فكرة عن الجيوش الأوروبية ونظامها ورغم هذه الاستهانة فقد أمر بجمع قواته كلها في مرشد آباد حتى إذا تمّ له ذلك زحف بهذه القوات صوب كلكتا . واستولى كليف على بدجبدج وطرد أتباع سراج الدولة من قلعة وليم واستعاد كلكتا وفتح أقليم الهوجلي جميعه ، وراع الأمير ما بلغه عن قوة الانجليز وما رآه من سرعتهم في الفتح والاستعمار ، فعرض الصلح على التراجع على أساس أن يستردوا ما كان قد أخذه منهم وأن يدفع لهم تعويضاً عما لحق بهم من خسائر .

وتداخل كليف الشك في عروض الأمير سراج الدولة ولكنه كرجل حرب رأى أن قواته محدودة فعقد مجلساً حربيًّا كان بين أعضائه موظفو الشركة الذين كانوا قد هربوا من كلكتا . وكان كل همهم أن يعودوا إلى وظائفهم وأن يظفروا بتعويض عن الخسائر التي لحقتهم . وفي ذلك الوقت كانت الحرب قد نشبت في أوربا وخشيت حكومة مدراس احتمال قيام الفرنسيين بهجوم لهم عليهم ، وأصابهم من أجل هذا الخاطر قلق عظيم وصاروا ينتظر

عودة كليف اليها بفارغ الصبر ورأى روبرت أن عروش الأمير صخية، وان نتيجة النضال معه غير مأمونة، وانه من نظير أن يصطلح معه مبدئياً أصفه، لأن الظروف لم تتح له نصراً مؤزراً كما يبغي ويشتهي.

بدأ كليف حياته عسكرياً من الطراز الأول، ولكنه أضاف الى هذه الصفة منذ تلك المفاوضات التي دارت بينه والأمير صفة السياسي، بل غلبت هذه الصفة على صفته الأولى، ونال في ميدان السياسة من النجاح ما فاق كل نصر أحرزه بصفاته العسكرية قبلاً. الا أن هذا الميدان كان محرماً عليه، وكان العامل الأول في سبيل هدمه.

ويرى ماكولي أن كليف لم يكن رجلاً سيئاً بطبعه، بل كان شجاعاً الى حد التهور مخلصاً الى حد الانخداع بالظواهر، مندفعاً في صداقته صريحاً في عداوته. لم يحاول مرة شراء في تلك البلاد النائية عن وطنه، أو بين مواطنيه أن يخدع أحداً من بني جلدته. وقد كان يرى أن السياسة في بلاد الهند تستدعي منه أن يكرن على الصفات التي اتصف بها فيما بعد. فكان يعلم انه سيعامل رجالاً ما يأبهون كثيراً بالمحافظة على الوعود أو العهود، ولا يحجمون في سبيل تحقيق أغراضهم عن الالتجاء الى الغش والتزوير. ورأى انه من الخرق في الرأي أن يتمسك بالمثل الأخلاقية العليا في محيط من الناس لا يؤمن بها. ولهذا خلع كليف رداء الجندية، وما كانت تمليه عليه من مبادىء وصفات مادية، واكتسى ثوباً يتناسب مع عقيدته الجديدة التي زادها تمكناً من نفسه أول تجربة شهدها مع الأمير سراج الدولة.

إذ بينما كانت المفاوضات دائرة بين كليف من جهة وسراج الدولة من جهة أخرى، وكان يمثل كليف فيها وكيلان أحدهما مستر وطسن الموظف بفرع الشركة في اقليم البنغال، وثانيهما أحد البنغاليين واسمه أومیشند، وكان أوميشند هذا تاجراً ثرياً من أثرياء كلكتا، وضاعت ثروته كلها خلال حملة سراج الدولة على كلكتا وكان يؤمل الحصول على تعويض طيب من وراء هذه المفاوضات الدائرة، وكان ذا تأثير كبير في مواطنيه، كما كان على قدر كبير من صفات الهندوس، ومنها قوة الملاحظة، وسرعة البديهة والذكاء، وحسن التصرف، وكان يجمع إلى هذه الصفات رذائل الهندوس، ومنها ضعة النفس والجشع والخيانة، بينما هذه المفاوضات سائرة في طريقها الطبيعي، اذا بسراج الدولة يحاول القيام بعمل حربي طمعاً في

أن يؤثر ما يسفر عنه في صير المفاوضات، ولكنه رأى في صمود الانجليز وقوة بأسهم منجاة له يكف عن الحرب، ويرضى بشروط كليف للصلح. وما انتهت المعاهدة حتى غير سراج الدولة اتجاهه، وسوّل على مناهضة الانجليز بكل الوسائل، فتآمر مع السلطات الفرنسية في شندر ناجور، وطلب الى بامي أن يسير من الدكن الى الطرجلي ليطرد الانجليز من ذلك الاقليم. وعلم كليف ووطسن بسر هذه المؤامرة، فعول الرجلان على أن يقوما بضربة قاضية، وان يغزوا شندرناجور قبل أن تصل اليها امدادات جديدة من بوندتشيري أو من فرنسا. وترأس وطسن القوات البحرية وتولى كليف قيادة الحملة البرية وكان نجاحهما سريعاً ورائعاً فان القلعة، عاصمتها وقوات الحامية والمدفعية كل هذه استسلمت سريعاً للانجليز وكان بينها عدد من الفرنسيين يقرب من خمسمائة.

مؤامرات

وهكذا شاءت على سراج الدولة فرصة ضرب الانجليز الفرنسيين وازداد خوفه منهم وكراهيته لهم معاً، وأخذ يتردد بين مسالمة الانجليز ومظاهرتهم بالعداء، فبينما كان يرسل بعض المال كجزء من التعويض المفروض عليه الى كلكتا، إذا به في اليوم التالي يبعث الى بامي هدية سنية طالباً اليه أن يسرع لانقاذ البنغال من أيدي كليف، ويصدر أمره للجيش بالزحف على الانجليز، ثم يعود ثانية الى الغاء هذا الأمر فاذا جاءته رسالة من كليف مزقها وألقى بها في وجه الرسول. وأخيراً يكتب الرد على هذه الرسالة ويتحرى الأدب واللياقة في هذا الرد. ولقد حدث أن طرد مستر وطسن من حضرته، ثم عاد فأمر بادخاله عليه، واعتذر له عما بدر منه في حقه. وكان سوء أخلاق الأمير وجنونه وسوء سياسته، وإيثاره الدهماء على أوساط الناس وكبارهم، سبباً في أن ينفر منه هؤلاء سواء كانوا من المسلمين ذوي النخوة والصراحة، أم من الهندوس المالكين المخلصين، وأن تجتمع كلمة هؤلاء النافرين على الائتمار به وفي هذا يقول كليف في رسالة له الى مستر بيجوت حاكم مدراس (كانت صفاته سبباً في أن تمقته فئة من الرجال الممتازين في الاقليم. ويمكن أن أقول لك أن مؤامرة واسعة النطاق تحاك خيوطها الآن بمهارة بأيدي دهاته المالكة وعلى رأسهم جاءت سيث بنفسه، ولقد طلبت

مني المعاونة وإني لمقتنع كل الاقتناع بأنه لن يكون هناك سلام أو أمان حيث يحكم مثل هذا الشيطان، وسنسمع قريباً عن ثورة تضع حداً لآمال الفرنسيين في البلاد.

وكانت المؤامرة التي أشار إليها كليف في رسالته تشمل راجا دولاب رام وزير المالية وميرجافير القائد العام للجيش وحاجت سيث أغنى تمول في الهند. وكان الانجليز على علم بما جاء في رسالة كليف وكان الاثنان مستعرًا بين المتآمرين في مرشد اباد والمجلس الانجليزي في كلكتا.

وفي هذا المجلس الذي كان بطيئاً في قراراته، وقف كليف الى جانب المؤتمرين واستطاع أن يتغلب على الآراء المعارضة، وان يحصل على موافقة المجلس على مساعدة أولئك المؤتمرين لخلع سراج الدولة عن عرشه واجلاس ميرجافير مكانه وحصل المجلس من ميرجافير هذا في نظير العرش المرتقب على وعد بدفع تعويضات مجزية للشركة الانجليزية وموظفيها ولجنود الجيش والبحرية وأعضاء المجلس.

قد يبدو ما لقيه الانجليز على يد سراج الدولة في غزوته الأولى، وما كان محتملاً أن تلقاه تجارتهم من بوار إذا هو ظل على العرش مبرراً لمشاركتهم في التآمر عليه.

ولكن لم يكن هناك ما يبرر اتباع كليف سياسة ذات وجهين مع الرجل؟ كان يكتب لسراج الدولة بعبارات معسولة كانت تنزل السكينة والطمأنينة في قلبه. وفي نفس البريد الذي يحمل تلك الرسالة كان يبعث إلى مستر وطس برسالة يجيء فيها «قل لمير جافير لا تخش شيئاً وإني سأمده بخمسة آلاف مقاتل لا يعرفون التقهقر، وأكد له أني سأسير إليه ليل نهار وسأقف بجانبه حتى آخر رجل لدي».

وكان من المستحيل أن مؤامرة واسعة النطاق كهذه تبقى سراً دفيناً. فقد وصل إلى سراج الدولة ما أثار شكوكه، ولكن أوميشند استطاع بلباقته وكياسته، وسرعة بديهته، أن يهدىء من روع الأمير بما كان يخترعه من حكايات وأقاصيص حتى زالت شكوك سراج الدولة، وأوشكت المؤامرة وقد أجيد حبك أطرافها أن تؤتي أكلها حين علم كليف بأن أوميشند يستطيع أن يبقي على أرواح الكثيرين، أو يقضي عليها لا سيما أرواح واطس وميرجافير وسائر المؤتمرين، ولقد شاء أوميشند أن يستفيد من مركزه القوي، وأن يملي إرادته،

فأفصح عن طلباته وحددها بثلاثة آلاف جنيه ثمناً لسكوته وعدم إفشاء سر المؤامرة فضلاً عن مساعدته فيها ، وغضب المجلس لهذا الطلب واعتبر اقدام أوميشند عليه خيانة منه لا تغتفر ، وخشي ما قد يؤدي إليه من نتائج وسرت الحيرة في جو المجلس .

ذلك أن أوميشند الذي استطاع أن يكبت عاطفة الكراهية الشديدة التي يكنها لسراج الدولة منتدب ماله الذي جعله لا يملك شيئاً البتة بعد أن كان من سراة كلكتا ، بأن يندس في حاشية الأمير حتى أصبح أقرب المقربين اليه بل صار بمثابة الناصح الأمين له ، يأخذ برأيه ويعمل به ، ووصل إلى ما وصل إليه بدهائه ولباقته وكياسته .

وكان في مركزه الجديد عين المتآمرين الساهرة ، وأذنهم السميعة ، ينقل إلى مركز قيادة القوة المتآمرة في كلكتا كل ما يهمها الوقوف عليه . وكان ينفذ كل ما يصدر إليه من هذه القيادة مستغلاً في ذلك حظوته عند الأمير ، وتقربه منه .

دار في رأس كليف كل هذا في سرعة وأدرك خطورة الموقف ،وشاء أن يخرج من تفكيره السريع بحل يحفظ سرية المؤامرة حتى يتم نجاحها .

وكما كان كليف يفكر كذلك كان أعضاء المجلس يفكرون كلٌّ على طريقته الخاصة،فالكل كان يقدر خطورة ذلك الداهية البنغالي . ولهذا استولت على الجميع الحيرة . ولكن كليف تابع أوميشند في تفكيره وشاء أن يخدعه ورأى أن إخداع مثل هذا الرجل جائز . فلا بأس في أن تبذل له الوعود بسخاء ليؤمن جانبه في تلك الآونة الحرجة، حتى إذا تمّ الأمر، وتحققت المؤامرة يهمل أمره ،ويكون نصيبه الازدراء، والتنكر له جزاء استغلاله لحلقائه في مثل ذلك الموقف .

وشرح كليف ذلك للمجلس فاقتنع بوجاهة الفكرة ، ولكنه لم يجد وسيلة لخداع أوميشند الذي كان يصر على أن تضاف مادة الى المعاهدة المعقودة بين مير جافير والانجليز، وأن يرى بعيني رأسه تلك المادة التي يجب أن تنص على طلباته التي لم تكن تنحصر في الرشوة . بل شاء أن يعطى تعويضاً كبيراً عما لحقه من خسائر من جراء حملة سراج الدولة على كلكتا ، إلا أن كليف لجأ الى طريقة التزوير فأعدّ وثيقتين إحداهما حقيقية ولونها أبيض. وثانيتهما مزيفة ولونها أحمر .وذكر إسم أوميشند والبند الذي طلب إضافته في الوثيقة الحمراء ثم وجدت

صعوبة أخرى فان الأميرال واطسون لم يشأ أن يوقع الوثيقة الحمراء ، ورأى كليف أن خلو الوثيقة من توقيع الأميرال قد يثير شك أومينشد . وبالتالي قد يؤدي الى إفشاء المؤامرة فلم يتأخر عن تقليد توقيع الأميرال على الوثيقة الحمراء . ويقول جنج في كتابه عن كليف أن الأميرال وإن امتنع عن التوقيع إلا أنه أباح للمجلس استعمال إسمه بالطريقة التي يرادها .

وهكذا تهيأت الظروف للقيام بالعمل الحاسم ، وهرب المستر وطس من مرشد أباد سرًا وبدأت قوات كليف تتحرك فكتب الى الأمير بلهجة تختلف كثيرًا عما كان يكتب له به قبلاً ، فذكره بأخطائه السابقة مع الانجليز ، ودعاه الى التحكيم فيما بينهما من اختلاف في تعيين بازار على أن يكون مير جافير حكمًا ، وأعلنه أنه نظرًا لقرب سقوط الأمطار ولما كان انتظاره ردًا منه قد يحتاج عدة أيام فانه رأى أن ينتظر هو ورجاله ردّ عظمته على مقربة من مرشد أباد .

معركة پلاسي

تجمع سراج الدولة بالاً جميع قواته ، وصار للملاقاة الانجليز . وكان من خطط المؤامرة أنه عندما تواجه جيوش سراج الدولة جيوش الانجليز ينفصل مير جافير برجاله عنها وينضم بهم الى قوات كليف . فلما جاءت اللحظة الحاسمة تقلّب على مير جافير خونه ، ونسي أطماعه والوثيقة التي وقع عليها مع حلفائه ، فتردّد وطال تردّده الى أن استبدت بكليف مخاوفه من النتيجة لغموض الردود التي كان مير جافير يرسلها إليه على استفساراته عن سبب تأخيره .

وكتب كليف من كانوة الى المجلس في كلكتا بتاريخ ١٩ يونيه يقول : (يعترني قلق من جراء قلة الأنباء وغموضها ، فاذا لم يكن مير جافير خائنًا ، فان برودة أو ضعف قريته قد يكون سببًا في فشل الحملة ، وإنما أحاول الآن محاولة أخيرة لتأثير على مير جافير بوساطة أحد البراهمة لينضم إلينا . ولقد اخترت بلامي لتكون ميدانًا للمعركة القادمة ، وذكرت له أنه إذا لم يفعل ما طلبت منه أو لم يقدم دليلاً على حسن نيته في الوفاء بوعده ، فاني لن أعبر النهر) .

وهكذا كان كليف في موقف دقيق ، اذ أنه لم يكن لديه ما يحمله على الاطمئنان الى اخلاص حليفه . ومهما يكن من شأن كفاءته العسكرية أو ندرة ونظام من كانوا تحت إمرته ،

فانه مما لا شك فيه أن انتصار تراجت مير صاحب الذي كانت تبلغ في مجموعها عشرين ضعفاً لعدد قواته لم يكن بالأمر الهين . وزاد في حرج مركز كليف أنه كان لا بد له من عبور النهر لملاقاة أعدائه، فاذا تعذر له أن ينهزم فقد كان لا بد له من العودة عبر النهر ، وفي ذلك كارثة مؤكدة إذ لا يحتمل أن ينجو من رجاله في هذه الحالة أحد . وهكذا حدث لكليف ما لم يحدث له من قبل، إذ فارقته سرعة بديهته ، وخانته شجاعته ، ازاء المسئولية المخيفة التي قد تترتب على اتخاذ قرار ما . فعقد مجلساً حربياً وفي هذا المجلس رأت الاغلبية العدول عن الحرب ونزل كليف على رأي الأغلبية . ثم استدرك قائلاً انه لم يسبق له عقد مثل هذا المجلس وانه إذا أخذ بهذا الرأي فانه لن يقدر للبريطانيين أن يعودوا اقليم البنغال يوماً ما . وانفض المجلس، وانفرد كليف بنفسه في غرفة هجرة، وقضى ساعة يفكر وأخيراً تنبهت حواسه الذهنية وبرزت صفاته التي لازمته طوال حياته ، فقرر ترك كل شيء لظروفه ، وأصدر أوامره بالاستعداد في الحال لعبور النهر في الغد .

وعبر الانجليز النهر وآووا الى خيلة من أشجار المنجو قرب بلاسي ، ولم يكن بينهم وبين أعدائهم سوى مسافة ميل واحد . وقضى كليف ليله ساهراً لا يغمض له جفن يستمع الى قرع طبول جيش سراج الدولة فاستولى عليه الفزع اذ كان يتوقف على تلك المعركة سواء في حالة النصر، أم في حالة الهزيمة ، نتائج على غاية الخطورة ، هذه النتائج التي ستقرر بعد بضع ساعات من بدء المعركة .

ولم يكن سراج الدولة أحسن حالاً من كليف إذ كانت أعصابه مهتاجة ، وانتابته المخاوف وتمكن منه القلق ، وأخذت تتراقص أمام عينيه أشباح ضحاياه ممن قتلوا في الغرفة السوداء . فانعدمت ثقته في قواده وحاشيته ، حتى أصبح يستشعر الخوف من كل من يتقدم اليه، أو يقترب منه ، كما كان يخشى الوحدة في نفس الوقت ، ولكنه اضطر الى أن يفضل الوحدة فانفرد بنفسه في خيمته تنتابه الهواجس والأفكار .

وطلع نهار ذلك اليوم الذي تقرر فيه مصير بلاد الهند فبعد شروق الشمس بدأت جنود الأمير تنساب من المعسكر متجهة صوب الانجليز وكان عددهم أربعين الفاً من المشاة مسلحين بالكرات النارية والحراب والسيوف والقوس والنشاب . فانتشرت هذه القوات

في السهل فلا تأبه على حدته ، يحميهم خمسون مدفعاً ضخماً يجر كلا منها بعمة ثيران بيضاء ويدفعه من الخلف فيل هائل . ومدافع أخرى صغيرة ، يشرف عليها جنود فرنسيون كانوا من الوجهة الحربية أكثر أهمية من أولئك المشاة على كثرتهم . أما الزمان ، وقد بلغ عددهم خمسة عشر ألفاً من الرجال الأشداء الذين حيء بهم من المقاطعات الشمالية ، كانوا كما لاحظ كليف يختلفون كثيراً عن أهالي اقليم الكرنات . ولم يكن لديه أبعد تلك الجموع والتملب عليها سوى ثلاثة آلاف رجل منهم ألف جندي انجليزي والآلمان الباقيان هنود ، دربوا تدريباً انجليزيا ، ويقودهم ضباط من الانجليز

وبدأت المعركة . كما يقول كليف « في الساعة السادسة صباحاً بدأوا هجومهم علينا بقذائف مدافعهم الثقيلة ، يصحبها هجوم الجيش برمته . وضغطوا علينا ضغطاً شديداً بضعة ساعات ، وصار موقفنا سيئاً جداً ، إذ كنا محصورين بين الأشجار ، وورلهنا شاطىء طيني . وكان الرد على طلقات مدافعهم بمثلها مستحيلاً لصعوبة حركة مدافعنا ، ولأنهم كانوا يحيطون بنا على شكل نصف دائرة ، فرأينا أن ننتظر قدوم الليل لنقوم بهجوم عام يتقدنا مما كنا فيه ، وبقينا في مراكزنا صامتين . ولكن حدث عند الظهيرة أن انسحب العدو من الميدان ، وآوى الى معسكراته » . واكتفى سراج الدولة بأن أمر المدفعية باطلاق النار على الانجليز ، ولم يكن الاطلاق محكماً فكانت القذائف تسقط بعيداً عن أهدافها وأجابت مدفعية الانجليز بالمثل ، ولكن قذائفهم سقطت وسط معسكر الأمير فقتلت كثيراً من ضباطه ، وعمت الفوضى وانتشر الذعر . وكان الأمير أكثر من سواه ذعراً ورعباً ، لاسيما بعد أن سقط المطر وأصاب ذخائره بالتلف . وبعد أن مات مير حادان أشد فواد الأمير اخلاصاً له . فلما تقدم راجا دولاب رام وأمرّ اليه بالتقهقر . وكانت هذه النصيحة لخليفه جزءاً من المؤامرة المتفق عليها ، كان سراج الدولة كأنما ينتظر من يدلي اليه بمثل هذه النصيحة فأمر بتنفيذها فوراً . وكان هذا التنفيذ سبباً فيما حلّ به بعد ذلك من كوارث متعاقبة . فان كليف انتهز الفرصة وأمر جنوده بالتقدم في الحال ، وساعد على نجاح هذا التقدم ان جنود سراج الدولة لم تكن عندهم رغبة في القتال ، ولا كان النظام سائداً بينهم . وهكذا انتصر جيش كليف على قلة عدده على جيوش الأمير . وكانت الساعة الثانية من بعد ظهر ذلك اليوم ، ولم

يصمد في الميدان سوى الجنود الفرنسيون الذين ظلوا يقاومون حتى الساعة الخامسة مساء . وأخيراً هربوا فيمن هرب . وهكذا لم يجد الانجليز أمامهم سوى العتاد الحربي من المؤن والذخائر التي تركتها ثروات الأمير في هربها . فلم يخسر كليف غير اثنين وعشرين قتيلاً وخمسين جريحاً دفعها ثمناً لامبراطورية غنمها للابد في تلك المعركة .

لم يقدم ميرجافير أية مساعدة للانجليز خلال المعركة ، ولما رأى أن النصر حليفهم وأن الواقعة تنتهي سريعاً على هذا النحو انسحب بالجيش الذي كان تحت امرته من الميدان . وأرسل تهانئه الى حليفه . وفي الصباح ذهب الى معسكر الانجليز على ظهر فيل وهو يتوقع استقبالاً رائعاً . ولكن الذي حدث أن الحرّاس حين رأوه ورفعوا أسلحتهم لتحيته ، ظن أنهم يريدون به شراً وفضل أن ينسحب . ولكنه رأى كليف نفسه يتقدم لمصافحته فترجل عن فيله ، وعانق كلا الرجلين الآخر ، وحيّاه كليف بقوله « يشرفني أن أستقبل في معسكري حضرة صاحب العظمة أمير البنغال وبيهار وأوريسا » . فارتاحت نفسه واطمأن وانشرح صدره ، لا سيما بعد ان طلب منه كليف أن يسير توّاً الى مرشد أباد ويباشر سلطته هناك » .

وكان سراج الدولة بعد أن هرب من ميدان القتال قد أسرع في العودة الى مرشد أباد على ظهر جمل سريع ، فوصلها بعد أربع وعشرين ساعة ، وجمع حوله مستشاريه يتدبر معهم الامر ، فأشار عليه أكثرهم حكمة بأن يسلم نفسه للانجليز الذين لن يفعلوا به أكثر من أن يخلعوه من عرشه ، أو يسجنوه ، فثار لهذه المشورة وأتهم المشيرين بالخيانة ، وأشار عليه غيرهم بمواصلة الحرب مع الانجليز ، ورأى هو مجاهة هذا الرأي ، فأصدر أوامره بالاستعداد للحرب ، ولكن قواه المعنوية كانت قد انهارت ، وقضى على ما بقي منها محاولته نبأ وصول ميرجافير على رأس جيشه ، فزاد ذعره ، ولم يعد يحتمل تلك الانفعالات النفسية التي أخذت تنتابه ، فارتدى ثياباً رثة ، وحمل معه كيساً مملوءاً بالجواهر ، واتخذ من الليل ستاراً ، وتسلل من نوافذ قصره ، وصحبه تابعان ونزل ثلاثتهم الى قارب كان ينتظرهم في النهر وركبوه الى مدينة پاتنا .

وفي يوم ٢٩ يونيه وصل كليف إلى مرشد أباد على رأس مئتي جندي انجليزي وثلثمائة

هندي، ونزل في قصر كان قد أعدّه له ميرجافير من قبل، وعسكر جنوده في حدائق القصر. وأعدّ الاحتفال بتولية ميرجافير على عرش البنغال على عجل، وقاد كليف الأمير الجديد الى (المسند) وأجلسه عليه وأهداه هدية ذهبية، كانت العادة في الهند قد جرت على أن يقدمها الى الأمير يوم توليته ذوو المكانة في الأقاليم. ثم التفت الى الجماهير التي ملأت جوانب القاعة، وهنأهم بتلك الفرصة الطيبة التي مكنتهم من التخلص من الحاكم الظالم سراج الدولة

والآن وقد تمّ لكليف وحلفائه، تنفيذ خطتهم، وقد بقيت خطوة لا تقل أهمية عما سبقها من خطوات، وهي خطوة اقتسام الغنائم؛ وتدبير أمر المملكة الجديدة، وعقد المؤتمر الذي كان عليه أن يبت في هذه الأمور في منزل جاجيت سيت الممول العظيم، وحضر هذا الاجتماع كل من دعوا اليه. وكان كل منهم مطمئنًّا الى تحقيق رغائبه، لا سيما وقد سبق أن اتفق على قرارات هذا المجلس مقدماً. وكان أكثر هؤلاء الأعضاء ثقة واطمئناناً هو أوميشند. وذلك لما كان يلقاه من كليف من مجاملة وعطف. فقد كان هذا يسرف في احتفائه به خداعاً ومداراة، حتى تمّ له الفوز والانتصار. وكان أول عمل يجب اجراؤه هو قراءة الوثيقة التي كانت قد أبرمت في كلكتا، فأخرج مستر سيكرفتون الموظف بالشركة الانجليزية الوثيقة البيضاء لتلاوتها، وحينئذٍ مال كليف على أذن مستر سيكرفتون قائلاً بالانجليزية « جابه أوميشند بالحقيقة » فتحول سكرفتون الى أوميشند وقال له باللغة الهندستانية (ان الوثيقة الحمراء كانت خدعة يا أوميشند. وليس لك أن تؤمل شيئاً). فهوى أوميشند بين أتباعه فاقد الحس والشعور. ثم أفاق فيما بعد، وقد اضمحلت قواه العقلية الى حدّ كبير وما زالت تضمحل حتى جنّ الرجل. وقابله كليف يوماً ما في طريقه فتأثر بما رآه منه، وأشار عليه بأن يحج الى الأماكن المقدسة في الهند لعله يسترد صحته وقواه ووعده اذا ما تمّ له ذلك بتعيينه في أحد مناصب الدولة الكبرى. ولكن أوميشند لم يعش غير بضعة أشهر كان خلالها يأتي أعمالاً مضحكة تثير الشفقة في أقسى القلوب وبعد ذلك مات.

ولم يكن أوميشند الضحية الوحيدة، للثورة فان سراج الدولة كان الضحية الثانية. فقد حدث أنه وقع أسيراً في يد ميرجافير عقب هربه بأيام قلائل، فألقى بنفسه على الأرض

مذعوراً بن قدمي ميرجافير مسترحماً ، مستغيثاً ، وهو الذي ما كان للرحمة في قلبه مكان وكان ميرجافير يرحم أسيره ، لولا تدخل ابنه ميران الذي كان شابًّا في السابعة عشرة من عمره ، وكان قد نشأ على غرار سراج الدولة وكان يتصف بكثير من صفاته ، فطلب من أبيه أن يكل اليه أمر الأسير ، وأجابه الأمير الجديد الى طلبه ، فقيد سراج الدولة الى غرفة سرية ، حيث واقاه اليها زبانية الموت والعذاب وعلى رأسهم ميران .

الثروة

ومن ثمّ بدأت الثروة تنهال على الشركة وموظفيها وكانت أول رسالة أرسلت إلى قلعة وليم عبارة عن مبلغ ثمانمائة ألف جنيه كلها من العملة الفضية وكان الاسطول الذي حمل هذه الرسالة مكوناً من مائة مركب ترفرف عليها الأعلام ، وتصدح فوق ظهورها الموسيقى ، كأنما هي موكب النصر ، وكان هذا المال سبباً في بعث الحركة والنشاط في مدينة كلكتا بعد أن كانت مهجورة قبل انتصار كليف ، وانتعشت التجارة في تلك المستعمرة الانجليزية من اقليم البنغال . وظهرت آثار النعيم والترف على كل بيت انجليزي . أما كليف نفسه فقد خصه من هذا المال مبلغ يتراوح بين مئتي وثلثمائة ألف جنيه ، ولو شاء زيادة عن ذلك لنال فلم يكن هناك ما يحول بينه وبين تحقيق أية رغبة يبديها في هذا الشأن . وتوالت الهدايا والهبات من حكومة ميرجافير على الانجليز الذين كانوا كأنبيا عثروا على كنوز كانت مخبوءة من قبل .

ولقد أصبحت تلك العلاقات التي قامت بين ميرجافير وكليف موضوع اتهامات أثيرت في مجلس العموم البريطاني . ووجهت فيها الى كليف تهمة الرغبة واستغلال المركز الذي صار فيه ، والسرقة باكراه من حليف ضعيف ، على أنه من انصاف الرجل أن نقول إنه لم يكن موظفاً رسميًّا يفرض مشيئته على الناس ، بل كان موظفاً في شركة تجارية ، وان الهدايا التي قدمت اليه كانت تجيزها العوائد المتبعة في بلاد الهند في ذلك الحين ، وان لم تكن معروفة في انجلترا . ولو كان أحد الذين أتهموه بتلك التهم في مثل مركزه ورأى كنوز بلاد البنغال تنفتح تحت قدميه في مرشد أباد ، لعلم كيف كان كليف قنوعاً حين أرتضى لنفسه ما وصل اليه . فضلاً عن ان الرجل كان صريحاً فلم يخف من الناس ما وصل اليه بل جاهر دائماً بأنه قد أصاب من

ثروة الأمير المنهزم ما جعله ثريًا . وهذا يدل على أنه كان يعتقد أنه لم يأت صوابًا لأنه لم يمس مصالح الشركة، بل زاد من الأرباح التي كانت تجنيها . ولا هو فرط في حقوق وطنه . بل كسب له أقاليم جديدة واسعة وغنية وآهلة بالسكان . وأنا قبل هدايا في أقطار تبيح تبادل الهدايا كما وإنه لم يكن هناك نص في دستور انجلترا يحرم عليه ذلك . ولكن مهما يكن من كولي يرى أن كليف كان مخطئًا على كل حال لأنه كان قائدًا ، والقائد خادم لحكومته وليس لسواها . وتبعًا لذلك فكل هدية تقدم إليه يجب أن تكون عن طريق حكومته، أو على الأقل تكون هذه الحكومة على علم بها وتوافق عليها ، وتنطبق هذه القاعدة حتى على الهدايا التي لا تعدو أن تكون نثارًا أو وسامًا . وأن قبول الضباط لمثل تلك الهدايا المغرية إذا تمّ بغير علم ولا موافقة الحكومة التي يتبعونها إذا صار ذلك قاعدة معمولاً بها ، فإن الأمر كان يفسد والفوضى تعم . حقًا لم يكن هناك قانون يحول دون قبول الهدايا من الحلفاء والاصدقاء . ولكن المنطق وسلامة الذوق كانا يقضيان على كليف بعدم قبول هدايا ميرجافير .

واطمأنّ ميرجافير الى عرشه والى انه لن تستطيع يد أن تمتد اليه بسوء الاّ اذا تخلت عن حمايته تلك اليد التي رفعته .

وكان ميرجافير رجلا حسن الأخلاق حميد السيرة لكنه لم يكن على شيء من الصفات التي تكسبه محبة الشعب واحترام الأمراء ، لا سيما وقد أصبح انتقاد أولي الأمر ميسورًا وخلعهم جائزًا بعد تلك الثورة الماضية ، فلقد كان ميرجافير نفسه وليد الثورة . ولهذا لم يكن عجيبًا أن تثور النفوس من جديد تبعًا لخلاف وجهات النظر والعقائد ، وان يتولى نواب مقاطعة أود زمام هذه الثورة ، وان يتحرج الموقف ويصبح جو السياسة في اقليم البنغال مطبقاً بالغيوم . ولم تكن هناك قوة تستطيع أن تحمي ميرجافير من هذه الأعاصير، وتعيد الأمور الى نصابها سوى قوة كليف وكفاءته . ولكن الذي حدث انه في هذه الظروف العصيبة وصلت سفينة الى كلكتا تحمل بريدًا من مقر الشركة في انجلترا يبدو انه كتب قبل أن تصلهم أنباء معركة بلاسي وفيه قرار مديري الشركة أن يتولى السيطرة على ممتلكات الشركة في اقليم البنغال حكومة مكونة من أشخاص لم يكن كليف واحدًا منهم وكان أعضاء الحكومة الجديدة الذين وقع عليهم الاختيار لا يتصف واحد منهم بأية قدرة أو كفاءة

لحمل أعباء تلك المسؤولية الكبيرة ، وأظهروا شعوراً طيباً نحو كليف فتضامنوا في التنحي عن قبول هذا التعيين متحملين مسئولية مخالفة أوامر الشركة، وسلموا كليف مقاليد الأمور يتصرف فيها كيف يشاء .

ولما وصلت الى مقر الشركة في لندن أنباء انتصار كليف الباهر في بلاسي عدّل المديرون قرارهم في الحال وأصدروا أمرهم بتعيين كليف حاكماً عاماً لممتلكات الشركة بالبنغال مع تقديم تقديرهم وثنائهم لما قام به من جلائل الأعمال . وبهذا أصبحت سلطة كليف مطلقة وبلغت في قوتها كل ما كان دوبليه يتمتع به في الجنوب . وكان مير جافير يعتبره سيده ومنقذه فقد حدث إنه عنف مرة أحد كبار الاشراف لأن أتباعه كانوا قد اشتبكوا في عراك مع بعض جنود الشركة من الهنود وقال له خلال حديثه « هل أنت في حاجة لأن أقول لك من هو الكولونيل، وبأي قدر قد حباه الله من التكريم والتعظيم ؟ » . فنهى الشريف عن أتباعه تهمة اعتدائهم على أتباع كليف . ويقول ما كولي إن كليف كان ينظر الى الهنود والأوربيين بمنظار واحد، فالانجليز كانوا يرون فيه القوة التي تستطيع أن تكره مير جافر على تنفيذ تعهداته له ومير جافير كان يرى فيه ماي ملكه من شعبه المتمرد ، وجيرانه من الأمراء الطامعين والذين كانوا يتحينون له الفرص .

وأرسل كليف فورد أحد قواده الى شمالي اقليم الكرنات حيث كان للفرنسيين نفوذ كبير، وكان لابد من اجلائهم عنه . وأثبت نجاح حملة فورد أن كليف كان موفقاً في اختياره لقيادتها .

وبينما كان جزء كبير من قوات الانجليز في البنغال منهمكاً في الحملة سالفة الذكر ، إذ هدد الحدود الغربية لذلك الاقليم خطر جديد عظيم الشأن . وتفصيل ذلك أن المغول العظيم كان سجين قصره في دلهي . وكان أكبر أبنائه هماه علام ألعوبة في يد كل من يريد تسخيره لأغراضه، فكان مرة أداة في أيدي المهراتا، ثم أصبح فيما بعد صنيعة للانجليز . وكان الذين يسخرونه في تحقيق أغراضهم إنما يفعلون ذلك لما يتمتع به الأمير من احترام الشعب الهندي كله له. ولهذا السبب نفسه إستمالة أمير أود إليه ، فتجمع له تحت لوائه جموع كبيرة من

المغامرين الحربيين من جميع أنحاء البلاد ، وبهذا تألف تحت إمرته جيش كبير قوامه أربعون ألف رجل يختلفون بعضهم عن بعض في الجنس والدين واللغة والعادات، ووضع الأمير الطبقة التي يستطيع بها خلع ذلك الرجل الذي استند الى حراب الانجليز في تولي عرش البنغال ليتولى مكانه أميراً على أقاليم البنغال ، وأوريسا وبيهار .

وعلم مير جافير النبأ ففزع واستبدّ به الخوف لما سمع، ورأى أن الحل الوحيد لتلافي ذلك الخطر الدائم هو عقد محالفة مع شاه علاّم ولو اضطره الأمر الى دفع مبلغ جسيم . وكان ذلك الخاطر هو نفس الخاطر الذي كان دائماً يخطر على بال من جلسوا قبله على عرش البنغال إذا ما هدّدهم خطر على الحدود ، ذلك لأنّ سكان هذا الأقليم كانوا دائماً محبين السلم، ويخشون الحرب، ويدرؤون خطرها بأي ثمن ما دام هذا الثمن لا يتعدى أن يكون مالاً . ولكن كليف سخر من هذا الخاطر وكتب لمير جافير « إذا أنت فعلت ذلك اجتمع عليك جيراتك جميعاً وعدّدوك نفس التهديد ليحصلوا منك على جميع ما لديك من مال حتى لا يبقى لديك شيء في خزانتك، وأنا أرجو يا صاحب العظمة أن تثق في حلفائك الانجليز وفيما لديك من جنود » .

وبمثل هذا الاسلوب كتب كليف الى حاكم باتنا بأن يقاوم الى آخر رجل لديه ، وأن يطمئن الى أن الانجليز قوم أوفياء وأقوياء، وأنهم لن يتأخروا عن مد يد العون الى أصدقائهم في الشدائد وأنهم لا يتوانون عن خوض غمار الحرب في سبيل ما سبق لهم أن حاربوا من أجله .

ونفذ كليف وعده، ذلك أن شاه علاّم حاصر باتنا وكان على وشك اكتساحها حينما بلغته أنباء زحف كليف صوب المدينة . ومع أن القوات الانجليزية لم يتجاوز عددها أربعمائة وخمسين أوروبياً، وألفين وخمسمائة وطني ، إلاّ أن ما كان قد اكتسبه من صيت في الحروب جعل اسمه مصدر رعب وفزع ، فما لاحت طلائع الجند حتى ولى المحاصرون الأدبار وحاول الفرسيون المتطوعون في جيش الأمير شاه علاّم إتباع سيرهم بالثبات ، ولكن محاولتهم هذه ذهبت أدراج الرياح . وبمثل هذه السهولة تبدّد ذلك الجيش الضخم الذي يهدّد ، وشد أزاد وتعبت لأميرها كثيراً من القلق والفزع .

وعاد القائد الأسير الى قلعة وليم وبهذا انتهت محاولة مير جافير بنجاح وفرحاً وأهدى منقذه هدية سنية . ذلك أن الشركة الإنجليزية كانت تدفع إيجاراً لأمير البنغال عن تلك المساحات الشاسعة التي كانت تشغلها حتى بلكتا . وكان هذا الإيجار لا يقل عن ثلاثين ألف جنيه سنوياً . وهدأ بال مير جافير من ناحية شاه علام ، ورأى أن يقدم لكليف هدية مناسبة لم يجد خيراً من أن يوقف ذلك الإيجار على كليف مدى حياته .

وقبل كليف هذه الهدية ووافقت ادارة الشركة على هذا القبول، ولكن صداقة مير جافير لم تدم طويلاً . فقد كان يساوره شعور قوي بأن الحليف القوي الذي أعانه على بلوغ الامارة قد يهدمه في أية لحظة . وإنه بهذا الوضع كان تحت رحمة كليف، وساءه أن يكون مهدداً هكذا باستمرار، فأخذ يبحث عن حليف جديد يدرأ به خطر الإنجليز إذا هدده منهم خطر ما في يوم من الأيام ، ولم يفكر أبداً في أن يكون حليفه من الهنود لأنه كان يعتقد كل الاعتقاد أن الهنود ما كانوا ليجرؤون يوماً على الوقوف أمام كليف، إذ كانوا يرهبونه ، وكذا لم يفكر في الإستعانة بالفرنسيين ، لأن قواتهم في أقليم البنغال كانت قد تلاشت فاتجه ببصره الى الهولنديين الذين كانوا يتمتعون بسمعة ذائعة لم تخدشها بعد الوقائع . فهم كانوا قد استولوا على مستعمرات الأسبان والبرتغال أثناء حروب الاستقلال واحتكروا تجارة الشرق الأقصى وجزر الهند الشرقية التي احتلوها، وكانوا قد استقروا في لمبورنا في سنة ١٦٢٣، وفي سليبر في سنة ١٦٦٣ ، وفي ملقه سنة ١٦٤١ ، وفي جزيرة سيلان في سنة ١٦٥٨، وكانت عاصمة الامبراطورية الهولندية في الشرق الأقصى في باتافيا بجزيرة جاوة . ولم تكن أنباء هزيمة هولندة في أوروبا قد بلغت الهند بعد ، فاتصل مير جافير بمقر الشركة الهولاندية في شينسورا واتصلت هذه الشركة بولاة الأمور في باتافيا بارسال حملة لا تقل في قوتها عن القوة الانجليزية الموجودة في اقليم البنغال . وسر ولاة الأمور في باتافيا بهذا العرض فقد كانوا يشكون من انفراد الانجليز بتجارة الملح وقصر استخدام من يقومون ببعض الأعمال الملاحية في الهوجلي على الانجليز ، وقيام هؤلاء بتفتيش جميع المراكب القادمة الى الهوجلي، ورأوا فيه فرصة لخدمة وطنهم وأهدافهم على السواء . فقد كانوا يطمعون في مثل الثراء الذي أصابه الانجليز في تلك البلاد ، ولهذا جهزوا حملة قوية حملتها سبع سفن كبيرة سارت بها من جاوه حتى بلغت

الهوجلي فجأة في اكتوبر سنة ١٧٥٩. وكان عددها خمسة آلاف مقاتل لصفهم من الأوربيين. وكانت الظروف ملائمة للهولنديين، إذ كان جزء كبير من قوات كليف في اقليم الكرناتك لمحاربة الفرنسيين وكان ما لديه من قوات لا تستطيع مقاومة هؤلاء الغزاة. وبلغه أن مير جافير وحب سرًّا بالهولانديين. وكانت هناك صعوبة أخرى تواجه كليف هي أن هولانده كانت صديقة لانجلترا في أوربا، وذلك في وقت كانت بريطانيا فيه في حرب مع فرنسا؛ وكانت تحرص كل الحرص على ألاَّ تحارب هولانده في نفس الوقت. وكان كليف يخشى أن يشتبك مع هذه القوات الهولندية فيغضب ولاة الأمر في لندن فلا يوافقون على عمله، بل قد يتعرض من جراء مثل هذا العمل للحساب والعقاب. إلاَّ أنه كان مقتنعاً بأنه لو سمح لهؤلاء الهولنديين بالمرور في النهر فبلغوا مقر الشركة التي يتجمعون فيها في شنسورا فإن مير جافير سيأتي بنفسه حتماً بين أحضانهم ويصبح الموقف خطراً على السيادة الانجليزية في اقليم البنغال كله. ولهذا رأى أن يتخذ قراراً سريعاً وحاسماً على ضوء هذه المعلومات دون أي اعتبار خارجي ووافقه ضباطه على ما ذهب اليه.

* * *

وحاول الهولنديون أن يمروا بالقوة وكانت كل سفينة من السفن التي تحملهم مجهزة بستة وثلاثين مدفعاً. وكانت بينها سفينتان مجهزة كلاهما بستة وعشرين مدفعاً. ولكن الانجليز كانوا يحيطون بهم براً وبحراً، إلاَّ أن العدو كان متفوقاً في القوة عدداً وعدة. ومع هذا التفوق استطاع الانجليز أن ينتصروا على الهولنديين وأن يستولوا على سفنهم بعد أن قتلوا وأسروا معظم رجالهم من الأوربيين. وعقب هذا الانتصار تقدم الانجليز نحو شنسورا فاستسلمت بسرعة. وأملى كليف شروط الصلح في شنسورا. ومن هذه الشروط أن يتعهد الهولنديون بألاَّ يقيموا استحكامات دفاعية في تلك المدينة، وألاَّ يجندوا أكثر من القوة اللازمة لحفظ النظام في مؤسسات الشركة، وانهم في حالة مخالفة أحد هذه الشروط يكونون قابلين للعقاب الذي ينزله بهم الانجليز.

العودة الى انجلترا

بعد هذا النصر الذي توّج اسم كليف في انجلترا بإكليل الغار قبل أن يذهب هو اليها حتى قال الوزير العظيم بت عنه في مجلس العموم (لقد فقدنا المجد والشرف وانصبت الطيب في كل مكان ما عدا الهند لأن العناية الالهية قد وهبت الوطن هناك قائداً عبقريّاً فذّاً لم يسبق له أن درس فنون الحرب . ومع ذلك فقد هاجم بحفنة من الرجال جيشاً هائلاً دون خوف أو وجل هذا الرجل الذي حافظ على شمعة وطنه وزاد في مجده وكانت قوة عزمه مما يندهش له أعظم القواد الحربيين وحضور بديهته مثار اعجاب الهنود) . مما بلغ كليف وهو في الهند فملأه بالرضى عن نفسه ، ولكن هذا الرضا لم يبلغ مبلغ الغرور .

وفي ٢٥ فبراير سنة ١٧٦٠ غادر كليف أرض الهند في طريقه الى انجلترا وعند وصوله الى لندن لقي من الترحيب الشيء الكثير . وتوالت عليه الهدايا والهبات إلاّ أنه كان يطمع في أكثر مما رأى ، فاذا أخذنا في الاعتبار سن كليف عند وصوله إذ كان لا يتجاوز الخامسة والثلاثين ورتبته في الجيش وقتذاك ومنبته المتوسط الذي منه درج لوجدنا ان ما قوبل به من حفاوة وترحيب كان عبئاً عظيماً ، فأرلندا منحته لقباً أسبغ به من أشرافها ، وفتح هذا أمامه أبواب الأمل في أن يصبح من أشراف انجلترا نفسها ، لاسيما بعد أن أحسن الملك جورج الثالث — الذي اعتلى عرش انجلترا حديثاً — استقباله ، وأحاطه الوزراء بالتكريم والتقدير .

وكان كليف قبل وصوله الى انجلترا قد أرسل اليها ثمانين ومائة الف من الجنيهات من طريق الشركة الهولندية ، وأكثر من أربعين الفاً من الجنيهات عن طريق الشركة الانجليزية ، ومبالغ أخرى لا تقل أهمية عن هذه عن طريق مؤسسات أخرى . وفضلاً عن كل هذا المال فقد حمل معه من الماس والجواهر قدراً لا يستهان به ، وما كان يملكه في بلاد الهند من أراض قدّر بنفسه ثمنها بمبلغ سبعة وعشرين الف جنيه ، كل هذه الثروة التي لم تتح فعلاً لرجل بدأ معدماً كما بدأ كليف ، ساعدته ومكنته من أن يصرف المال عن سعة وبذخ حتى بذّ أشراف انجلترا في هذا الباب .

وكان كليف بارًا بأهله فقد أرسل عقب معركة بلاسي — التي كان انتصاره فيها مفتاح كنوز ثروته — الى أخواته عشرة آلاف جنيه، وأعان كثيراً من الأصدقاء والأقرباء الفقراء، وأمر وكيله بأن يدفع ثمانمائة جنيه سنويًا لأبويه، وأن يشتري لهما عربة تحرها الجياد، كما رتب خمسمائة جنيه سنويًا لرئيسه السابق لورنس، الذي كانت أحواله المالية على درجة كبيرة من السوء. وبلغ ما أنفقه كليف في هذا السبيل خمسين ألفاً من الجنيهات.

وأكثر كليف من شراء الاراضي واستطاع أن يصبح عضواً في مجلس العموم البريطاني عن شيروزبري، ورغم ذلك فلم يلعب دوراً هامًا في سياسة بلاده. ففي أول عهده بالسياسة اتصل بالمستر فوكس، ثم أعجب بعبقرية ونبوغ المستر بت. وأخيراً انضم الى جورج جرنفيل في عام ١٧٦٤. وهكذا تنقل في أهوائه السياسية.

ولم يعب كليف أي نجاح في السياسة البريطانية رغم أنه كان محبوباً من جميع مواطنيه من الملك ومن الوزراء ومن دونهم من أفراد الشعب، ذلك لأن ما كان ينعم به من ذيوع صيت ومجد وتقدير انما كان أساسه ما ناله من نجاح في بلاد الهند، سواء في ميدان السياسة أم في ميدان الحرب. ولو كان رجل غير كليف لقنع بما أحرز من ألقاب، وما نال من ثراء، وما نعم به من ترف وسعادة من أهله وأحبائه، ولكنه كان رجلاً تعوّد الكفاح والحركة، فأخذ يرقب عن كثب ما يرد من أنباء اقليم البنغال كأنما كان يتنبأ بأن المآل هناك ستدعوه حتماً يوماً من الأيام الى تولي قيادة الأمور في تلك البلاد النائية.

المآل في الهند

وكانت الأخبار تترى عن فساد الحكم والادارة في اقليم البنغال واضطراب الأمور فيه. ولعلّ ذلك كان راجعاً الى أن مركز ادارة شركة الهند الشرقية في لندن كان بعيداً عن ميدان أعمالها بعد أن حال بينها وبين مراقبة موظفيها في كلكتا. فجهلت كل شيء عنهم وعن تصرفاتهم لأنه لم يكن يهمها الا ضمان الأرباح التي تعود على المساهمين.

واستفاد هؤلاء الموظفون من جهل رؤسائهم بأحوالهم. فاستغلوا التجار الوطنيين والأهالي استغلالاً عجيباً، ناسين كل اعتبار، الا أن يجمعوا الأموال الطائلة في أقصر مدة ممكنة حتى اذا عادوا الى وطنهم عادوا أثرياء. ولم يقفوا عند هذا الحد، بل بلغ بهم الأمر أن تدخلوا في

سياسة الحكم باعانة بعض الأمراء على بعض، بل خلعوا ميرجافير ذلك الأمير الذي اجلسه كليف على عرش البنغال وأحلوا ميرقسيم محله لقاء جعل معين ومزايا وعدوا بها، ولكن هذا الأمير كان ذا شخصية قوية وارادة حازمة وروح تميل الى الاستقلال فلم يشأ أن يذيب أفراد شعبه في بوتقة الظلم ليكون منه سبيكة خالصة من الذهب يقدمها الى أولئك السادة، لأنه رأى أن هذا الشعب قد استبد به البؤس، واشتدت به الفاقة، ولم يعد في ضرعه قطرة من اللبن، ذلك الشعب الذي بدأ أفراده يهربون الى الجبال خشية الاضطهاد، وهرباً من الاستعباد.

وأسف حضرات الموظفين لتولية ميرقسيم لأنه لم يعطهم ما طلبوا ولا حقق لهم ما رغبوا فيه، فسرعان ما خلعوه عن عرشه، وأعادوا ميرجافير مكانه، ولم يكتف موظفو الشركة في أقليم البنغال بفرض سلطانهم على الأمراء ومن في حكمهم، بل عمدوا الى بث وكلائهم ومندوبيهم في القرى لإكراه الناس على أن يبيعوا لهم بضائعهم وحاصلاتهم بثمن بخس، وعلى أن يشتروا ما يؤمروا بشرائه منهم بثمن غال. وكان أولئك المندوبون والوكلاء يستندون في عملهم هذا الى السلطان المخول لهم من ادارة الشركة المحلية والتي كانت تعتمد في إظهار قوتها وجبروتها على قواتها المسلحة، ولو لتي الهنود هذا العنت والاضطهاد من أمرائهم لثاروا عليهم وخلعوهم من عروشهم كما كانوا يفعلون قبلا. أما والذين كانوا يفعلون بهم هذا من الانجليز فقد كان الاهالي يؤمنون بأنهم قوم لا يمكن أن ينالوا بسوء، أو يبدى إليهم نصح بعد قوي هذا الاعتقاد عند الهنود فأصبحوا يرون أن الانجليز ليسوا من البشر إنما هم فئة من الجن. وكثرت حوادث الهرب. فلقد كان الهندي يهرب من الانجليز كما كان يهرب من المرائنا الى الجبال الموحشة، والغابات المسبعة، لعله يجد في جوار سباع القلاة أمناً لا يجده في جوار أولئك المستعمرين، فاكانت تصل إحدى القرى أنباء وصول سائح انجليزي حتى يبادر أهلوها الى اخلائها فوراً، فاذا دخل الرجل القرية وجدها بلقعاً يباباً.

وتسرب الفساد من ادارة الحكم الى الجيش نفسه فالضباط أصبحوا هم الآخرون يرفلون في ثياب الترف والنعيم، ويتمتعون بكل ما يستطيعون الحصول عليه من الفوائد وطرائف وتفشى بينهم روح التمرد والعصيان. وانتقلت هذه العدوى الى الجنود الأوربيين منهم والهنود وكثرت المؤامرات وعمت الفوضى والاضطراب بلاد الهند وظل ايراد الشركة قليلا

الخواطر في لندن لهذه الحال وزاد في قلقها توارد الأنباء عن الاخطار التي كانت تهدد حدود تلك البلاد .

وأخذت الأنظار تتجه الى كليف الذي كان غيابه عن اقليم البنغال خمس سنوات سبباً في كل ما حلّ به من سوء ، ودارت على الألسنة عبارة أن كليف وحده دون سواه هو القادر على اعادة الأمور الى نصابها في الامبراطورية التي أوجدها .

وظهر هذا الرأي واضحاً وصريحاً في الجمعية العمومية التي عقدها مساهمو شركة الهند الشرقية وأجمع الكل عليه ، ونادى المنادون بأنه يجب تناسي ما نسب الى الرجل ، وان يتخذ معه على القيام بهذا العمل .

وقبل كليف في ذلك الاجتماع أن يذهب الى اقليم البنغال ، وان يصلح من شأنه ، وان يعمل على زيادة أرباح الشركة ، ولكن على شرط أن يتخلى مدير الشركة (سوليفان) عن منصبه ، وكان هذا منه تحدياً ظاهراً لغريمه القديم ذي السلطان القوي والنفوذ الكبير . ولكن الحاجة الى كليف حدت بالمساهمين الى إجابة طلبه ، وذلك بإعادة انتخاب مجلس ادارة الشركة وجاءت نتيجة هذا الانتخاب مرضية لكليف . فعين وكيلاً للشركة وقائداً عاماً للممتلكات البريطانية في أقليم البنغال .

تطهير

في هذه الظروف سافر كليف الى الهند للمرة الثالثة والأخيرة ، فبلغ كلكتا في مايو من عام ١٧٦٥ حيث وجد أن ادارة الحكم كانت في واقعها أكثر فساداً مما سمع عنها ، فان مير جافير كان قد مات عقب وفاة ولده ، واستهتر موظفو الشركة بأوامر رؤسائهم البعيدين عنهم كل البعد ، والجاهلين بشئونهم كل الجهل ، تلك الأوامر التي كانت تحظر عليهم قبول هدايا من الأمراء الوطنيين ، وشجعهم على هذا الاستهتار ، جشعهم للمال والربح . فأخذوا على عرض عرش البنغال للمزايدة ، وتقدم إليهم من دفع لهم أربعين ألف جنيه ثمناً لذلك العرش فتقاضتها تسعة من ذوي النفوذ في الشركة ، وارتفع العرش ثمناً لهذه الصفقة طفلٌ من سلالة الأمير الراحل وكان كليف قد بلغته أنباء هذه المساومة وهو في طريقه الى مقر عمله فاستاء لما سمع ، وزاد استياؤه حينما رأى وعلم ، فكتب الى صديق له في إنجلترا يقول (وأسفاه لما

أصاب سمعة الانجليز ، فإني أخشى أن لا أستطيع لملاح ما حلّ بشرف الشعب البريطاني واني أشهدك وأشهد الله الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور : أني جئت هذه البلاد ، وضميري نقي لا تزق اليه شائبة ، وأني عزمت على أن أبيد هذه المساوىء التي تفشت في كيان البلاد أو أهلك دونها) .

واجتمع مجلس ادارة فرع الشركة في كلكتا بناء على دعوة كليف الذي أعلن الأعضاء خلال ذلك الاجتماع بعزمه على أن يقوم بعملية تطهير واسعة ، وأنه سيستعمل في هذه السبيل كل سلطة مخولة له ، سواء أكانت هذه السلطة مدنية أم عسكرية . وثار أشد الأعضاء جرأة ، وأبلغهم قحة ، وأسودهم صفحة ، لهذا القرار ، ولكن كليف أسكته بقوله (أتريد أن تعترض على الحكومة الجديدة وسلطانها ؟) . ولكن الثائر المحتد اعتذر وجلس متخاذلاً واسودّت وجوه إخوانه وتجلهم حزن عميق ولم يستطع أحد منهم أن ينطق حرفاً .

ونفذ كليف وعده ، ففي خلال الثمانية عشر شهراً التي أقامها حاكماً بأقليم البنغال أحرز نجاحاً أي نجاح في تنفيذ مهمته التي جاء الهند من أجلها ، وكانت تلك الفترة من حياته أسعد أيامها ، فلا يذكرها بالقطار حتى أخريات أيامه .

وموضع القطار أنه كان يستطيع أن يضاعف ثروته خلال تلك الفترة بأن يغمض عينيه عما كان يأتيه موظفو الشركة مع شعب وديع مسالم لا حول له ولا قوة من استغلال ، بل واستنزاف موارده ، فذلك الشعب الذي كان يجهل أين تقع تلك البلاد التي تكبته بارسالها إليه أولئك المضطهدين القساة . ولكنه لم يشأ أن يبيع لنفسه ما جاء لتحريمه على سواه . وكان يعلم أنه في هذا التحريم سيصطدم برغبات بني جلدته من المغامرين الجشعين ، وأنه سيتعرّض لثورة هائلة يثورونها عليه إذ فوّت عليهم جمع أكبر ثروة مستطاعة في أقل مدة من الزمن . كان الرجل يعلم كل هذا فأعدّ للأمر عدته ، رغم أن النجاح كان يبدو في أول الأمر مستحيلاً ، ولكن العوائق أخذت تنهار الواحدة بعد الأخرى أمام شجاعته ، وقوة إرادته ، فمنع قبول هدايا الهنود ، وحرّم على الموظفين الاتجار . وأحسّ كليف استياء هؤلاء وغضبهم لهذا فأعلن في حزم ما يتطرق اليه شك في أنه إذا لم يجد في حامية قلعة وليم القوة التي تكفيه لتنفيذ أمره فإنه سيأتي بتلك القوة من جهة ما ، وأتبع القول العمل فطرد الذين

أصرّوا على مقاومته ، واستبدل بهم غيرهم ، فلما رأى الباقون ما حلّ بالثائرين استسلموا لأمره ، ورضخوا لمشيئته ، وبهذا استتبّ له الأمر في أقليم البنغال .

ولكن كليف كان يعلم أن قوته الشخصية هي التي بدّدت تلك المساوىء التي كانت البلاد تئن منها وترزح تحت أثقالها . وأنه من المحتمل أن تعود الى سابق قوتها إذا ما هو ترك مركزه هذا لسبب من الأسباب ، ورأى من الخير استئصال أسباب العلة .

العلوج

فان الشركة كانت قد جرت على منح موظفيها مرتبات ضئيلة لا تكفل لهم الحياة الهانئة أو تضمن لهم الرياسة والوجاهة ، وهم الذين تركوا بلادهم وارتضوا العمل في ذلك الجو الخانق الذي لم يتعوّدوه في أوطانهم . وكان طبيعيًّا أن أي رجل متوسط الكفاءة أو المواهب لا يرضى بمثل هذه الظروف إلاّ إذا كان قد رسم لنفسه خطة يتوجها إنجاحاً للرزق وطلباً للمال .

وعوّل كليف على أن يفتح لاولئك الموظفين باباً للرزق يدر عليهم ربحاً طيباً حلالاً يغنيهم عن قبول هدايا الأمراء ، وفرض إرادتهم على التجار والوسطاء ، سواء أكان ذلك في البيع أم الشراء ، ولا يدعهم ينتظرون عبثاً من أولي الأمر في لندن زيادة مرتباتهم ، وهو أبغض الحلول عند أولئك المديرين . وفكر الرجل طويلاً في أمر (الملح) وكوّن (شركة الملح) التي كان لها احتكار تجارة الملح في الأقليم كله ، وساهم فيها كبار الموظفين بمبالغ تتناسب مع درجاتهم وكانت الأرباح التي تعود عليهم من أسهمهم تتفق وما اكتسبوا به . وقال كليف في هذا الصدد (ان المزايا التي تعود على المساهمين من تأسيس هذه الشركة والتي لها مطلق الحرية في احتكار هذه المادة هي أكبر حائل يمكن أن يحول دون قبول هدايا الوطنيين من الهنود ، ثم هي لا تضير شركة الهند الشرقية بشيء ما .)

ومهما يرو كليف انشاء شركته هذه فإنها كانت تتعارض مع الأمر الاداري الذي صدر من مركز الشركة الرئيسي في لندن في ٨ فبراير سنة ١٧٦٤ خاصًّا بتحريم الاتجار في بعض المواد ومنها الملح على الموظفين . فاتهمه أعداؤه ثم اتهمه التاريخ بأنه خالف أوامر الشركة ونكث عهده الذي عاهد ادارة الشركة عليه ، وانه بدلا من أن يقضي على دابر الاتجار ، وفي

الشركة لحسابهم الخاص كما كان مفروضاً فيه عند مجيئه الى كلكتا نظير هذا الاتجار ووسع في أوكاته . ويرى ماكولي ان احتكار تجارة الملح كان مقصوراً على الحكومات المختلفة في بلاد الهند قبل أن يولد كليف وانه بقي كذلك أمداً طويلاً بعد مماته، وان كل ما فعله الرجل لا يعدو أن يكون فتحاً لباب من الرزق لموظفيه يزيد من ثرائهم قليلاً قليلاً . ولكن هذه الزيادة منتظمة وثابتة ، لأنها تجعلهم مطمئنين الى مستقبلهم ، فيسيرون في عملهم باخلاص ويكرسون له جهودهم ووقتهم فيزداد نجاحاً وتعود فائدة ذلك كله على الشركة ومساهميها .

بهذا قضى على مشاركة الموظفين المدنيين بمشروطاته الاصلاحية فاتجه ببصره الى العسكريين وكانت الشركة قد خفضت مرتباتهم تحقيقاً للاقتصاد الذي يرضي مساهميها ، وتخفيفاً لضغط المصروفات . ولولا أن كليف كان في كلكتا في ذلك الحين لسار الأمر الى أكبر جانب من الخطورة ، فهؤلاء كانوا أرباب السيف في بلاد لا يمكن أن تحكم بغير السيف . ودبر منتا ضابط من الانجليز مؤامرة ضد الحكومة وصمم المتآمرون على الاستقالة من خدمة الجيش وضربوا لذلك موعداً يستقيلون فيه دفعة واحدة طالين أن كليف وهو خير من يقدر أهميتهم لا يقبل أن يترك الجيش بغير ضباط . ولكن كليف لم يأبه بهذه الاستقالة فاعتمد على اخلاص من لم يشترك في تلك المؤامرة وأرسل الى قلعة سان جورج في طلب عدد جديد من الضباط وعين في الوظائف التي خلت باستقالة أولئك الضباط مدنيين ممن يثق بهم . أما الجنود الانجليز منهم والهنود فقد ظلوا على اخلاصهم ووفائهم لقائدهم الذي كان موضع اعجابهم وتقديرهم ، وأمر بجمع الرؤوس المفكرة لتلك المؤامرة في الحال وشكل محكمة لمحاكمتهم وقررت المحكمة فصلهم من خدمة الجيش . أما الباقون فقد راعتهم ما حل بزعمائهم فالتمسوا سحب استقالتهم ، وأعلنوا توبتهم، فعفى كليف عن صغار الضباط . أما كبارهم فقد كان معهم صارماً ، لا عن حقد ولا كراهية شخصية ، ولكن لأنهم ارتكبوا جريمة العصيان .

السياسة الخارجية

الآن وقد تم له تطهير الادارة الحكومية مدنية كانت أم عسكرية، اتجه كليف ببصره الى السياسة الخارجية ، فكان وصوله الى اقليم البنغال بشيراً بالسلام . فان نواب أوده كان قد جمع جيشاً على حدود مقاطعة بيهار، وكان هذا الجيش يضم بين صفوفه كثيراً من قبائل الافغان

والمهراتا . وكان المحتمل أن تنضم اليه عناصر أخرى كثيرة من الهنود ضد الانجليز . فاذا بلغ الأمير المهاجم نبأ وصول كليف الى كلكتا حتى عدل عن فكرة مهاجمة مقاطعة بيهار وطلب الصلح من الانجليز فقبل طلبه وكان كليف هو الذي أملى شروط هذا الصلح .

وكانت العلاقات بين الانجليز والحكام الوطنيين غامضة غير واضحة الاسس والمعالم ، وان كان الأولون أصحاب السلطان الحقيقي في اقليم البنغال . ولقد شاء كليف أن يكسب للانجليز صفة شرعية في حكم ذلك الاقليم فحصل من ذلك الامبراطور الضعيف والذي لم يكن له حول ولا قوة مقابل قليل من المال على تصريح يفوض فيه الانجليز في حكم وتحصيل ضرائب أقاليم البنغال وأوريسا والبهار تلك السلطات التي كان الانجليز يمارسونها فعلاً قبل صدور ذلك التصريح ولكن بقي هناك أمير أو على الأصح شبه أمير كان الانجليز يتخذونه لكأة في حكم اقليم البنغال ، وأراد كليف أن يمحو ذلك الشبح ولكنه عاد فأبقى عليه لانه رأى في بقاء تلك الصورة الهندية ما يفيده في سياسته مع تلك الدسائس الأوربية الأخرى التي لا ترى غضاضة في النزول على رأي أمير وطني اعتادت احترامه من قبل عما يساعده هو على تحقيق أغراضه ، ولكنه عاد فخشي أن يصبح ذلك الامير في يوم من الأيام ألعوبة في يد الآخرين فعدل عن الابقاء عليه .

العودة الاخيرة

وبعد أن قضى كليف في بلاد الهند ثانية عشرة شهراً اضمحلت صحته وتبدد فيها جزء كبير من قوته أبحر عائداً الى وطنه للمرة الأخيرة في يناير سنة ١٧٦٧ .

ولم يجد كليف من مواطنيه في أوبته هذه ما لقيه منهم في المرة الأولى من ترحيب وحفاوة ، بل لقي كل اهمال وانتقاد مرّ كما آلم نفسه ، وحزّ في قلبه ، وحطم أعصابه ، حتى عجل به الى قبره . وكان أول من ناصبه العداء أولئك الذين كانوا يحقدون عليه في ادارة الشركة ، وكانوا ذوي نفوذ قوي وسلطان متين ، وتطوّع للانضمام اليهم في حملتهم على الرجل فئة من المؤرخين الذين طالما عاثوا في اقليم البنغال فساداً ، فقتلهم من أرضها اقتلاعاً ، وطهر البلاد منهم تطهيراً . وزاد في قوة هذه الجبهة التي اتحدت للقضاء عليه استعانتهم بالصحف في التشهير به وإثارة الرأي العام عليه .

وكانت قد تكونت في انجلترا طبقة جديدة من أولئك الذين عادوا من الهند أثرياء ، بلغ بهم ثراؤهم مبلغ الأشراف في الترف والنعيم ، وإن لم يرفعهم الى مصافهم في الخلق والعادات ، فكانوا مثار بغض الناس وانتقادهم ، وحقدهم ، لأن هؤلاء الناس كانوا يعلمون أن هذا المال لم يأت إليهم حلالاً طيباً ، ولا كان ثمرة كدّ أو عمل ، ولكنه كان مالاً مغتصباً من قوم سذّج بسطاء سليمي الفطرة مسالمين استغلوا استغلالاً قبيحاً واستنزفت أموالهم بل وأقواتهم، وجاء أولئك المغتصبون يبذرونه في غير أوجه التبذير ، ويبعثرونه حيثما اتفق ، لا يعنيهم إلاّ أن يبدو وجهاء ، وإلاّ أن يقول عنهم الناس إنهم عظماء ، ولكنهم لم يصلوا الى غاية من الغايتين بل أصبحوا موضع السخرية والانتقاد المر والتعقير في كل مكان حلوا به ، حتى لقد بلغ بهم الأمر أن الناس كانوا يخلون لهم ترامهم إذا هبطوا عليهم بها .

٥٥٥

وكان الشعب يريد أن يفرج عما كان يشعر به من ضيق إزاء أولئك المغتصبين بعد إذ رأى القصور يشيدونها في وقت قصير ، وما كانت تلك القصور تحويه من وسائل الترف ، وما كانت تضمه من الخدم والأتباع ، فسرعان ما صدق ما جاء بتلك الصحف المأجورة عن كليف ، بل واعتبره المثل الحي لأولئك المغتصبين فصبّ عليه غضبه ونقمته .

ولو نجحت مشروعات كليف في اقليم البنغال لكان ذلك شفيعاً عند الرأي العام ، ولكن كان من سوء حظه أن أثر تلك النظم التي وضعها لحكم ذلك الاقليم أخذ يضعف شيئاً فشيئاً ، وصيانته التي رعتها لإدارته تركت ظهرها ، وبعثت المساوىء التي أماتها من مرقدها وزاد في سوء الحال أنه حدث في صيف عام ١٧٧٠ أن كفت الأمطار عن الهطول ، وقلّ ماء نهر الجنجز وضحل ، ومات الزرع ، وجفّ الضرع ، وعمت المجاعة وادي ذلك النهر ، وانتشرت الأوبئة والأمراض ، ونشر الموت جناحيه على مكانه ، بل أدّى الأمر الى أن برزت السيدات المحجبات الناعمات من خدورهنّ وخرجنَ الى الطرقات حاملات أطفالهنّ كالعهور الذابلة ، يتسولنّ طالبات حفنة من الأرز لسد رمق أولئك الأطفال . وازدحمت شوارع كلكتا بالجثث حتى تعذر المرور فيها . ولم يكن ميسوراً للأحياء أن يحملوا تلك الجثث الى المقابر أو الى النهر الذي أصبح مليئاً بأمثالها لضخمهم ، وخورهم ، فتولت

الوحوش الضارية مهمة التهامها نهاراً . وراح ضحية تلك المجاعة ملايين من الهنود . وبلغت الأنباء لندن فضاعفت اهتمام الناس بأخبار الهند ، وكان أشد الانجليز اهتماماً بما أولئك المساهمون الذين قلقوا على مصير أرباحهم ، وبدأت النفوس تحس الأسف والأسى والعطف على ذلك الشعب البائس المنكود ، وتولد عن هذا الاحساس شعور بالغضب على أولئك الذين كانوا سبباً فيه . وأخذ الرأي العام يتهم موظفي الشركة الانجليزية الهندية بأنهم كانوا سبب تلك الكارثة لما كانوا يقترفونه من إكراه الهنود على بيع محصول الأرز وخيشاً لهم ، ثم شرائهم بثمن قليل فوق طاقتهم ، في وقت كانت الطبيعة قاسية عليهم فحرمتهم المال الذي عليه تتوقف حياتهم ، وان أولئك الموظفين في إتيانهم ذلك المنكر إنما استندوا الى حق أباحه لهم كليف فاستقر سخط الشعب على هذا الرجل

ويدفع ماكولي عن كليف هذه التهمة بقوله إنه كان وقت حدوث المجاعة قد غادر بلاد الهند منذ سنين ، وإنه ليس بين أسباب هذه المجاعة سبب واحد يتعلق بالقوانين التي سنها وقت أن كان متولياً منصبه في تلك البلاد ، وان موظفي الشركة باشتغالهم بتجارة الأرز انما خالفوا تلك القاعدة التي منها لهم والتي عمل على توطيدها بكل ما أوتي من قوة وان كل ما أباحه له ، انما هو تجارة الملح ، ولكن الناس كانوا قد اقتنعوا بأن كليف هو المسئول عن كل تلك المساوىء وانه من الواجب أن يؤدي عنها حساباً .

الحساب

والى ذلك الحين لم يكن البرلمان قد أطار المسألة الهندية أي اهتمام ، فنذ وفاة الملك جورج الثاني تعاقب على حكم بريطانيا حكومات ضعيفة قصيرة الأجل كانت كل منها تذهب ضحية رجال البلاط ، ووجدت في المصاعب الناشئة عن المؤامرات في قصر الملك والشغب في العاصمة والثورات في المستعمرات الأميركية ما شغلها عن العناية بمشكلة الهند فاذا ما تهيأ لها من الفراغ ما تستطيع أن تكرسه لدرس تلك المشكلة كان أثرها فيها ضعيفاً .

وأخيراً عم الشعور في سنة ١٧٧٢ بأنه أصبح على البرلمان ولجب الاهتمام بسياسة الهند . وكانت الحكومة اذ ذاك أقوى حكومة اضطلعت بأعباء الحكم منذ استتالة

الوزير بت في سنة ١٧٦١ ، إذ لم يعد يشغل الأذهان عن السياسة الأوربية ولا عن المشاكل الداخلية شاغل . وكانت أزمة الشركة الانجليزية الهندية قد بلغت ذروتها ، وكان الرأي العام قد ركز المسئولية كلها في كليف

وكان مركز الرجل دقيقاً وحرجاً إذ أصبح مكروهاً من الشعب كله ، ومكروهاً في ادارة الشركة . ومكروهاً من أولئك الموظفين الأثرياء الذين كسر شوكتهم فلم يكن كليف ضالعاً مع أي حزب من الأحزاب السياسية في بريطانيا حتى كان ذلك الحزب يتولى الدفاع عنه في البرلمان . وكان أعداؤه أقوياء نفوذهم في كثرتهم وفي نفوذهم وكانوا لا يريدون أقل من أن يفقدوه سمعته وثروته ، وان يصلوا الى طرده من البرلمان بعد ادانته أملاكه . ولم يبد على أولئك الناقمين أن تحقيق هذه الغايات يشبع رغبتهم في الانتقام منه .

وكان دفاع كليف في البرلمان يشبه كثيراً خططه الحربية فقد كان وحيداً محاصراً يتفوق أعداؤه في كثرة عددهم ونفوذهم ، ورغم كل هذه الأخطار المحدقة به لم يشأ أن يقف موقف المدافع عن نفسه بل آثر الهجوم . ففي بدء المسائل الهندية في ٣٠ مارس سنة ١٧٧٢ وقف كليف وألقى خطاباً مطولاً منمقاً دفع فيه عن نفسه معظم التهم المنسوبة اليه . وكان بليغاً في خطابه هذا حتى أثر في مستمعيه أثراً طيباً ، إلاّ أنه لم يدافع إلاّ عن أعماله في تلك الفترة الأخيرة من ادارته فرع الشركة في البنغال التي بدأت من عام ١٧٦٤ . ونجح في هذا الدفاع حتى ان أعداءه وقد سقطت حجتهم في اتهامه عن هذه الفترة وجهوا جهودهم ونجحوا في استجوابه عن الفترة السابقة لها .

وكانت هذه الفترة مليئة بنقط ضعيفة يمكن مهاجمته منها ، واختيرت لجنة من أعضاء المجلس بالانتخاب لبحث قضية الهند ، وتولت هذه اللجنة فحص تاريخ تلك الثورة الكبرى التي أدّت إلى أسقاط سراج الدولة وتولي ميرجافر مكانه . واستجوبت تلك اللجنة كليف استجواباً دقيقاً خالياً من أية مجاملة . وكان الرجل شجاعاً وصريحاً في اجاباته ، فاعترف بأنه خادع أوميشند وان ضميره لا يؤنبه لهذا الخداع ، بل وصرّح بأنه إذا أتيحت له في المستقبل ظروف مشابهة فسيلجأ إلى نفس الطرق التي اتبعها مع ذلك الرجل كما أقرّ باستلامه مبالغ طائلة من ميرجافر ، ولكنه أنكر استعماله في سبيل ذلك ما يخل بالشرف أو يتنافى مع

الأخلاق . وقال انه في ذلك لم يكن أنانيًا ولا جشعاً ووصف في أسلوب رائع مركزه الذي صار اليه عقب انتصاراته الكبيرة يتملقه الأمراء العظام ، وتتفتح تحت قدميه كنوز الذهب واللآلىء ويتنافس الممولون الكبار في سبيل ارضائه ، وأبدى عجبه قائلاً (إن مدى الرئيس . إني لأعجب في لحظتي هذه من قناعتي وقتذاك) .

وطالت مناقشة الاستجوابات حتى انتهت اللجنة من عملها وكان من السهل معرفة نتيجة هذا العمل ، فاعتبر كليف مذنباً ومقترفاً لآثام لا يمكن تبريرها ، إلا بخرق النظم المشروعة والقوانين الموضوعة . ولكن المجلس لم ينكر على كليف ما كان يتصف به من صفات عالية وتتحلى به من فضائل جمة ، وما كان قد أداه من خدمات خالدة لمكن من وطنه والشعب الهندي .

وما كان واجباً أن تجري محاكمة النابغين من الرجال لأخطاء ارتكبوها ، أو خطيئات أتوها تحت مؤثرات قوية لم يستطيعوا احتمالها كما تجري محاكمة المجرمين العاديين ، بل كان يجب أن يقدرهم معاصروهم التقدير الذي ينالونه فيما بعد من الأجيال التالية . حقًا ان الأعمال السيئة سيئة على كل حال ، لا يجوز لابسها ثوب الحسن . ولكن يجب الموازنة بين ما قاموا به من أعمال ، وما أتوه من جرائم . فإذا رجحت كفة حسناتهم وجب أن يقتصر الجزاء على لومهم . فكم من حاكم عظيم في التاريخ لم يسلم من ارتكاب غلطة أو اثنتين فأي من أولئك جميعهم كان يسلم من مثل تلك المحاكمة لو أن لمواطنيهم من القوة التي تدينهم كالتي أدانت كليف ، إن أفضل محكمة لمثل هؤلاء دائماً هي محكمة التاريخ .

كانت هذه الآراء نصب أعين العقلاء والمعتدلين من جميع رجال الأحزاب ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يبرئوه من اللوم كما أنهم لم يشاءوا أن يتركوه تحت رحمة تلك الذئاب الآدمية من ذوي العقول الضعيفة والتفكير السقيم . الذين قدموه لهذه المحاكمة وكانوا متعطشين للقضاء عليه .

وفي خلال المحاكمة أنعم الملك على كليف بلقب (سير) ودعاه إلى التشرف بالمثول بين يديه . وفي تلك المقابلة أنعم عليه بلقب لورد . ولما قبل يدي الملك جورج الثالث أبدى جلالته عطفه العظيم عليه وأذن له بمقابلة خاصة تحدث اليه خلالها مدى نصف ساعة عن

السياسة الهندية . وكان تأثر جلالته عظيماً حينما حدثه القائد المتهم عن خدماته وعن الطريقة التي عامله بها .

ثم عرضت القضية على مجلس العموم البريطاني ووقف موقف الاتهام روبرتس رئيس اللجنة التي تولت التحقيق ، وتودور النائب العام . أما ووبرتن مساعد النائب العام فقد وقف الى جانب كليف ودافع عنه دفاعاً بارعاً ومنطقياً ، ودافع كليف عن نفسه دفاعاً رائعاً كان أقصر وأقل مهارة من دفاعه في بدء محاكمته إلا أنه كان أكثر حرارة وشدة ، وربما حاسبه أن يذكروا أن حكمهم لن ينصب عليه وحده ، ولكنه سيشملهم أيضاً . وبهذا ختم دفاعه — وانسحب من المجلس .

الحكم

وقرر أعضاء مجلس العموم

« إن ما تحرزه قوات الدولة ملك لهذه الدولة وحدها وان احراز موظفي الدولة لتلك الممتلكات عمل غير قانوني ، وان الموظفين الانجليز في اقليم البنغال قد تعودوا مخالفة هذه القاعدة » .

وفي يوم تالٍ قرر أعضاء المجلس .

« أن كليف نال مبالغ طائلة من ميرجافر بحكم وظيفته كقائد عام القوات البريطانية في الهند » .

وهنا وقف الأعضاء عن أتمام النص الى النتيجة المنطقية .

ولما أثيرت مسألة اساءة استعمال كليف سلطة وظيفته وضربه مثلاً سيئاً للموظفين ، دارت مناقشة حامية حول هذه النقطة ، ووقف ووبرتن واقترح (أن اللورد كليف قد أدى في نفس الوقت لوطنه خدمات عظيمة وجليلة) . وبهذا انتهت المناقشة .

وهكذا اجتاز كليف تلك المحنة القاسية والأزمة القاتلة وساعده على هذا انه لم يكن رجلاً حزبياً تتعامل عليه الأحزاب الأخرى ، بل كان بطلاً وطنياً فسام المجلس كله في انقاذه ما كان مسوقاً اليه .

وأصبح كليف آمناً على ثروته وشرفه ، يحيط به أصدقاؤه وأقاربه ، إلاّ أنه كان يقاسي كثيراً من المتاعب الجسمية والعقلية . وخيمت على عقله سحب من الآلام والأحزان ولقد كان منذ شبابه المبكر فريسة الأفكار السود التي كانت تحبب اليه الموت . حتى لقد حاول الانتحار مرتين حينما كان كاتباً في خدمة الشركة في مدراس . ثم حالت كثرة ما قام به من أعمال وما نال من نجاح دون استمرار تلك الأفكار السود . ففي الهند شغلته الأعمال العظيمة التي كان مضطلعاً بها ، وفي انجلترا صرفه عنها ثراؤه وما ناله من رتب وتقدير فبدأ يرضى عن نفسه ويمدح نفسه صميماً . أما الآن فقد خلا من كل خاطر يشغله وأمل يرجيه ، أصبح كالريشة في مهب الريح ، لا سيما بعد أن نال ما نال من عنت أصدقائه وإهانة اللجنة التي تولت التحقيق معه ، وذلك الاتهام الذي وجهه إليه مجلس العموم وإن كان في ثوب مقبول ، وما كان يشعر به من أن مواطنيه يعدونه قاسياً وخائناً وظالماً . كل هذه الاعتبارات تجمعت في ذهن كليف ، وسببت له القلق والآلام وسوء الخلق .

وحينما كان في المناطق الحارة أصابته عدة أمراض مضنية والتمس شفاءها فيما أشار عليه به المشيرون بتعاطي الأفيون ، حتى أصبح لهذا التعاطي عادة وأصبح هو أسيراً لها . وقد كان يظل ساكناً ساعات طويلة تحت تأثير المخدر . ثم يصحو فتصحو معه ميزاته العسكرية والسياسية فيناقش أية مسألة تعرض عليه بجلاء وحكمة ثم يعود الى إغفاءته واطراقه الحزين .

وزادت حدة المناقشات بين انجلترا ومستعمراتها الأمريكية حتى دعى الأمر الى امتشاق السيف ، وفكرت الحكومة في الاستعانة بمواهب كليف لو كان قد ظلّ على ما كان عليه يوم رفع حصار « باتنا » . وعندما قضي على الجيش والبحرية البولندية عند مصب نهر الجنجز . ولكن كليف لم يكن عند ظن أولئك الوزراء به ، فإن عقله الجبار كان قد أجهدته المتاعب والآلام ، حتى اذا جاء اليوم الثامن والعشرون من شهر نوفمبر سنة ١٧٧٤ انتحر كليف وكان قد بلغ التاسعة والأربعين من عمره .

وهكذا انتهت حياة مؤسس الامبراطورية البريطانية في الهند بعد ان ترك صفحة رائعة في سجل الخالدين .

وللعرب

١ — فتاة البيشا : صورة جميلة ناطقة للحياة الداخلية في بلاد اليابان محلاة بالصور .

٢ — زينيدا وقصص أخرى : من ألطف ما كتب ألفون تشيكوف .

٣ — غرام الأميرال : صورة حية لأروع الوقائع الغرامية في التاريخ محلاة بالصور .

٤ — الجلد المسحور : قصة رائعة تحليلية لأونوريه دي بلزاك محلاة بالصور .

٥ — بائع الخمر وقصص أخرى : مجموعة من خير ما كتب أناتول فرانس .

٦ — دون جوان وقصص أخرى : « « « « أونوريه دي بلزاك .

٧ — روائع الأدب الألماني : لأشهر كتاب ألمانيا

٨ — عهد امرأة وقصص أخرى : مؤلفة

٩ — باقة البنفسج : مختارات من أشهر المآسي